
رواية
أنطونيو تابوكي
ليالٍ هنديّة
Antonio Tabucchi
Notturno indiano
Sellerio editore Palermo
NOCTURNE INDIEN
Antonio Tabucchi
Nocturno hindú
حاصلة على
جائزة ميديسيس
للرواية الأجنبية
من فرنسا
Antonio Tabucchi
Nocturne indien
folio
Indian Nocturne
Antonio Tabucchi
Jidar
Culture & Publishing
ترجمها عن الإيطالية معن مصطفى الحسون

ليالٍ هنديّة

الكتاب: ليالٍ هندية
المؤلف: أنطونيو تابوكي
رواية
ترجمها عن الإيطالية: معن مصطفى الحسون
العنوان الأصلي للكتاب والمؤلف باللغة الإيطالية لأول طبعة

Notturno indiano

Antonio Tabucchi

Sellerio Editore1984

الناشر

جدار للثقافة والنشر | مالمو، الإسكندرية

info@jidar.net | www.jidar.net

الطبعة الثالثة 2025

الطبعة الأولى عن جدار 2009

الترقيم الدولي: **978-1-326-20030-5**

التصميم الداخلي والغلاف: جدار للحلول المستدامة

Notturno indiano

Author: Antonio Tabucchi

Novel

Translate it from Italiano to Arabic

Publisher: Jidar for Culture & Publishing

.Interior and Cover Design: Jidar for Sustainable Solutions

ISBN: 978-1-326-20030-5

أنطونيو تابوكي

ليالٍ هنديّة

رواية

ترجمة معن مصطفى الحسون

ملحوظة من المترجم

فرضت علي الأمانة في النقل أن أنوه هنا إلى أن العنوان الحقيقي للرواية في اللغة الإيطالية هو:

«NOTTURNO INDIANO» وهو في هذا يتضمن صفتين «الليلي والهندي» الواحدة تلو الأخرى وهذا غير وراد في اللغة العربية.

لذا فإن الترجمة الحرفية للكتاب هي «ليلي هندي» وهو عنوان وجدته ثقيلاً بعض الشيء، ولن تطيقه اللغة العربية. على كل نشير هنا إلى أن العنوان الحقيقي الأصلي للرواية يقصد به التعبير عن ذلك الجانب الليلي والغامض لما يحدث.

إنه يمثل بالضبط هذا الجانب. ولما كانت الأحداث تجري في الليل، فإني توصلت إلى هذا العنوان «ليال هندية» الذي وإن كان غير دقيق كما أعترف، بحق، فإنه – إضافة إلى هذا التوضيح، وإلى ما يمكن أن يفهمه القارئ من هذه الرواية– يمكن أن يساعد القارئ على فهم المعنى الحقيقي للعنوان.

معن مصطفى الحسون

ملحوظة

هذا الكتاب، إضافةً إلى أنه أرقٌ حقيقي، فهو عبارة عن رحلة أرقٍ فيما يخص من يكتبه ومن يقوم به.

مهما يكن الأمر، وبما أن الصدفة قد جمعتني بالأمكنة ذاتها، تلك الأمكنة التي سبق أن عاش فيها بطل الرواية، فإني وجدتُ من المناسب جداً تقديم فهرسٍ مقتضبٍ يتضمن هذه الأمكنة. ولستُ أدري بالضبط ما إذا كان وهم تقديم ذخيرةٍ طبوغرافيةٍ للأمكنة، مضافةً إليها قوة تأثير الحقيقة، يمكن أن يلقي الضوء على هذا «الليلي» حيث يُبحث فيه عن ظلٍ، أو الافتراضَ غير المعقول، بأنه يوماً ما يمكن أن يستخدمه هاوٍ لرحلات غريبة ومتناقضة كدليلٍ سياحيٍّ له.

أنطونيو تابوكي

الأشخاص الذين ينامون بشكل سيء، يبدو أنهم تقريباً مذنبون.
ما الذي يفعلونه في الحقيقة؟ إنهم يجعلون الليل حاضراً.

موريس بلاتشو

الفصل الأول

[1]

لحيةُ السائق كانت مدبّبة. شعره المغطّى بقبّعةٍ مخرّمة كان ينتهي بذيلٍ معقودٍ بشريطٍ أبيض. خمّنت أنّه قد يكون من «السيخ» ذلك أنّ الدليل السياحي الذي كان بين يديّ يصفهم بالضبط كذلك.

إنّه عبارة عن كتابٍ يحمل العنوان التالي: [الهند: دليل لازم من أجل رحلة طارئة]، كنت قد ابتعته من لندن، وقد دفعني إلى ذلك الفضول أكثر من أيّ شيءٍ آخر.

لم يكن يقدّم سوى مجموعةٍ من المعلومات الضحلة عن الهند. إلّا أنّني تنبّهت مؤخّراً إلى مدى الفائدة التي يمكن أن أجنيها منه.

كان الرجل يقود بسرعةٍ مفرطة، وهو شيءٌ لم أكن معتاداً عليه. وقد دأب على قرع الزمور بعنفٍ خُيّل إليّ أنّه يكاد يمسّ السابلة، وقد رسم على شفتيه ابتسامةً غامضة جعلت تثير حفيظتي. كان يغطي كفّه اليسرى بقفّازٍ أسود.

وحتى هذا لم يكن ليروق لي. هدأت ثورته عندما دخلنا «ماريان درايف»، ثم ما لبث أن انخرط بسيّارته في أحد الصفوف المزدحمة وقد عمرته الطمأنينة. كنّا جهة البحر. أشار باليد ذات القفّاز إلى النخل الممتدّ على الساحل ثم إلى قوس الخليج، قائلاً:

هذا هو تروباي، ودونه تقع جزيرة «الإلفانتة»، ولكن رؤيتها عسيرة من هنا. أنا واثق أنّك سوف تقوم بزيارتها. تغادر المراكب باتجاهها كلّ ساعة من «بوابة الهند».

سألته عن السبب الذي يدعوه إلى قطع «ماريان درايف». لم أكن أعرف بومباي، لكن حاولت متابعة خطّ سيره وأنا أنظر في الخارطة المبسوطة على ركبتي. كنت أعتمد على علامات مثل مالابار، هيل، تشور، سوق اللصوص.

كان فندقي يقع بين هاتين النقطتين، وللوصول إليه لم يكن ثمّة داعٍ لعبور «ماريان درايف». كنّا إذاً نذهب في الاتجاه المعاكس. ردّ بلطف:

إنّ الفندق الذي أشرتَ إليه يقع في حيّ بائس، حتّى السوق هنا ذو مستوى وضيع، وفي الغالب ينتهي السياح الذين يؤمّون بومباي للمرّة الأولى إلى أماكن ليست محمودة. سوف أقودك إلى فندقٍ يليق بسيّدٍ مثلك.
بصق من النافذة وهو يومئ إليّ غامزاً، ثم قال مختتماً:
-حتى السوق هناك من الدرجة الممتازة

رسم ابتسامة لزجة على شفتيه، كانت تنطوي على غموض كبير، ولم يكن هذا ليدخل الراحة الى قلبي.
قلت:
-توقف هنا.
وعلى الفور استدار نحوي وقال وهو يحدجني بنظرة منكسرة:
-ولكن لا يمكن الوقوف هنا، إنّ المكان جدّ مزدحم.

سيّان عندي، سوف أترجّل. قلت هذا، ثم فتحت الباب وأنا أضغط بيدي عليه بقوّة. شدّ الفرامل بعنف. توقّف، ثم ما لبث أن أخذ يرتّل نوعاً من الابتهالات بلغةٍ لابدّ أن تكون «المراثي»[1]، وقد بدت عليه أمارات الغضب. بل كان مفعماً بالسخط والغضب، وأظنّ أنّ الكلمات التي تفوّه بها لم تكن لطيفة أبداً، لكن لم أكن لأكترث بذلك على الإطلاق. كنت أحمل معي حقيبةً صغيرة وضعتها بجانبي لذا لم يكن ثمّة حاجة لأن يترجّل ويفتح صندوق الأمتعة. تركت له ورقةً من فئة المئة روبية ثم انحدرت صوب المعبر الهائل لماريان درايف على الشاطئ، كان ثمّة ما يشبه الاحتفال الديني، لعله كان معرضاً. من يدري! كان الحشد غفيراً أمام شيءٍ لم أتبينه بوضوح، وقد استلقت مجموعة من المتشرّدين على سور المحيط. كان ثمّة صبية يبيعون سقط المتاع، متسوّلون، صفّ من

---

[1] المراثي لغة هندية يتكلمها سكان المنطقة الجنوبية الغربية من الهند – المترجم

العربات المزوّدة بموتورات، قفزت داخل إحداها؛ كانت صفراء اللون وقد أُسنِدت إلى جانبها درّاجة نارية. أشرت للسائق إلى وجهتي. ضغط بقدمه فاندفع الغاز وغاص في الزحام. كان حيّ الأقفاص أسوأ ممّا تصوّرت. كنت قد تعرّفت إليه عبر بعض الصور التي كان قد التقطها مصوّر شهير. وكنت أحسبني تزوّدت بعدّة كافية لرؤية بؤس البشرية، إلّا أنّ الصور تضيق أمام ما يمكن مشاهدته هنا. إنّه لشيء مختلف أشدّ الاختلاف ذاك الذي تشاهده دون أيّ زخرفة. كما كان لهذا المشهد رائحة نفّاذة، بل قل إنّه متعدّد الروائح. أزف الغسق بينما كنت أَلِجُ الحيّ، ثم ما لبث الظلام الدامس أن حلّ، تماماً كما يحدث عادة في المناطق الاستوائية. كانت أبنية حيّ الأقفاص قد شُيّدت في معظمها من الخشب وقصب الحصير. تقطن العاهرات أكواخاً حقيرة مبعثرة، وقد أطللن برؤوسهنّ عبر فتحات ضيّقة. بعض هذه الأكواخ يكبر بقليل أكواخ الحرس. ثم كان ثمّة أركان ذات ستائر هي أقرب إلى الخِرَق البالية. لا بدّ أنّها متاجر، أو لعلها ذات وظائف تجارية مختلفة. كانت مضاءة بفوانيس وقد تكوّم حشد من الناس أمامها، لكن فندق «كاجوراهو» كان مُزداناً بلوحة صغيرة مضاءة. كان يقع في زاوية أحد الشوارع حيث يمكن مشاهدة بعض الأبنية الحجرية هناك أيضاً. ولكن البهو، إن أمكن تسميته كذلك، كان غريب الشكل. لم يكن قذراً بل كان عبارة عن غرفة صغيرة مظلّلة ذات مسند عالٍ يشبه مساند الحانات الإنكليزية وقد انتشرت أضواء حمراء في سائر أرجائها، ثم قبعت امرأةٌ عجوز خلفه، كانت ترتدي سارياً ملفتاً للانتباه وقد صبغت أظافرها بطلاءٍ أخضر.

مظهرها الخارجي يؤكّد أنّها أوروبيّة، وحتى وإن ازدانت جبهتها بإحدى تلك الشارات التي تحملها النساء الهنديّات. دفعتُ إليها جواز سفري وأنا أوضح بأني كنت قد حجزت هنا عبر البرق. أومأت بالموافقة ثم انهمكت تدوّن المعلومات بعنايةٍ فائقة، وما لبثت أن قدّمت لي اللائحة كي أقوم بوضع خاتمي.

مع حمّام أم بدون حمّام؟

تساءلت وهي تفصّل لي الأسعار.

أخذت غرفةً ذات حمّام. وقد بدت لي نبرة البوّابة قريبة جدّاً من الأميركيّة، لكنّي لم أدقّق في الأمر مليّاً. قادتني نحو المكان وهي تعطيني المفتاح. حمّالة المفاتيح كانت من السيلولون الشفّاف وقد نُقشت عليها علامة الفندق.

تساءلت:

- هل ترغب في تناول العشاء؟

كانت تحدّق بي بريبة، وقد استطعت أن أستنتج بأن المكان ليس مما اعتاد الأوروبيون ارتياده. إنها بالتأكيد تتساءل في نفسها عن سر وجودي هنا، حاملاً حقيبة صغيرة، ومقبلاً إليها من المطار. قلت: "نعم". لم يكن الأمر يشدني كثيراً، لكني كنت ضاويًا من الجوع. ثم إنني أحسست بأن الوقت قد لا يكون مناسباً للقيام بجولة في أنحاء الحي.

قالت:

- تُغلَق صالة الطعام في الثامنة. بعد ذلك، نقدم كل شيء في الغرف.

قلت إني أرغب في تناول عشائي في الجناح السفلي، فتقدمتني باتجاه إحدى الستائر في الجانب الآخر من الرواق، ووجدت نفسي أدلف إلى إحدى الصالات. الجدران مدهونة بلون غامق والطاولات منخفضة. كان المكان خالياً من الزبائن تماماً والضوء خافت جداً. تضم اللائحة أصنافاً عديدة من المشروبات، لكن علمت فيما بعد من النادل أنه بالضبط هذا المساء كان قد نفد معظمها. ما تبقى هو الرقم خمسة عشر فقط. تناولت عشائي المكون من أرز وسمك بسرعة، ثم احتسيت بيرة دافئة وعدت إلى البهو. ما تزال البوّابة ثابتة في مكانها، وقد بدت منشغلة برصف مجموعة من الأحجار الدقيقة الملونة على إحدى المرايا. في ركن يجاور مدخل الفندق جلس شابان لهما سحنة غامقة. كانا يرتديان زياً غريباً، سروالين من نوع "أقدام الفيل". يبدو أنهما لم يكونا قد تنبها لوجودي بعد. لكن الكرْب تسلل إليّ بغتة.

انتصبت أمام المنضدة وانتظرت أن تبادرني هي بالكلام. تكلمت وراحت تعد لي أرقاماً. الصوت أجوف وضامر. لم أعِ كنه الموضوع تماماً، فرجوتها أن تعيد ما قالته. كل هذا كان لائحة الأسعار، وقد استطعت أن أميز أحد عشر رقماً، هي الأرقام الأولى والأخيرة. من ثلاث عشرة سنة إلى خمس عشرة سنة بثلاثمئة روبية، ثم بعد سن الخمسين بخمس روبيات. ثم اختتمت حديثها قائلة:

- النساء في الصالة في الطابق الأول.

تناولت الرسالة من جيبي ثم أريتها التوقيع. كنت أحفظ الاسم عن ظهر قلب، لكنني فضلت أن أريها الاسم مكتوباً تجنباً لأي لبس ممكن. قلت:

- فيمالاسار. أريد فتاة تدعى فيمالاسار.

ألقت نظرة سريعة نحو الشابين الجالسين على الأريكة، ثم قالت:

- فيمالاسار! إنها لم تعد تعمل هنا. لقد انصرفت منذ أمد.

تساءلت:

- إلى أين ذهبت؟

ردت:

- لست أدري، ولكن لدينا فتيات أجمل منها بكثير.

إن الأمر لا يدعو إلى الاطمئنان أبداً. هكذا خيل إليّ وأنا ألحظ الشابين بطرف عيني. لقد أتيا بحركة ما، لكن قد يكون هذا مجرد وهم.

قلت بسرعة:

- جديها لي، إني أنتظر في غرفتي.

لحسن الحظ وجدت في حقيبتي ورقتين من فئة العشرين دولاراً. دسستهما لها من بين الأحجار الملونة ثم تناولت حقيبتي. وبينما كنت أصعد السلم، داهمني شعور مفاجئ بالخوف، لذا هتفت بصوت مرتفع:

- إن سفارة بلادي على علم بوجودي هنا.

كانت إمارات النظافة بادية على الغرفة المدهونة بلون أخضر قانٍ، وقد ألصقت على الجدران صور لتماثيل عارية في خاجوراهو. هذا ما بدا لي للوهلة الأولى، ولم تكن لدي أدنى رغبة في التأكد من حقيقة الأمر. السرير منخفض جداً، وقد وضعت إلى جانبه أريكة رثة الهيئة، ثم كومت وسائد ملونة فوقه، وكان ثمة مكتب صغير ركنت عليه أشياء مختلفة.

نزعت ملابسي وأنا أتناول ملابس أخرى نظيفة. كان الحمام عبارة عن ركن صغير مدهون، وقد ألصقت على بابه صورة لشقراء تمتطي علبة كوكاكولا. اللوحة مائلة إلى الصفرة وقد اتسخت بفعل الحشرات. كان شعر الشقراء مسرّحاً على طريقة مارلين مونرو من الخمسينيات، وهذا ما كان يزيد طابع التنافر فيها. كان الدش بلا ساعد، إنه ببساطة عبارة عن أنبوب ذي فوهة، حيث ينحدر الماء من الأعلى حتى الرأس. شعرت بأن الاغتسال سوف يكون أمثل ما يمكن أن تطيب له النفس في تلك اللحظة، فقد كنت مثقلاً بوعثاء ثماني ساعات من السفر بالطائرة، ثم ثلاث ساعات من المكوث منتظراً في المطار، ثم الرحلة إلى بومباي.

لم أعِ كم من الوقت مرّ بي وأنا نائم، ساعتان أو أكثر، عندما أيقظني طرق على الباب، فنهضت وفتحت بشكل آلي. بل إني في البداية لم أكن قد ميزت مكان وجودي حين دخلت الفتاة وهي تخشخش. كانت صبية في مقتبل العمر ترتدي سارياً خفيفاً، يتصبب العرق منها، وقد راحت المساحيق الذائبة تسيل نحو زاويتي عينيها.

قالت:

- مساء الخير يا سيدي. أنا فيمالاسار.

ظلت منتصبة في وسط الغرفة. العينان خافضتان والساعدان مسبلان كما لو كنت أهم بامتحانها. قلت:

- أنا صديق كزافيير.

رفعت عينيها، فقرأت دهشة عظيمة في وجهها. كنت قد أعددت رسالتها راكناً إياها فوق المكتب. ألقت عليها نظرة ثم انخرطت في البكاء.

تساءلت:

- كيف أتيت إلى مكان كهذا؟ ما الذي كان يفعله؟ أين هو الآن؟

أسلمت نفسها للنحيب، ففطنت إلى أني قد أكون أفرطت في دفق سيل الأسئلة ذلك.

قلت:

- اهدئي.

قالت:

- سوف يغضب كثيراً حين يعلم أني كتبت لك.

- ولماذا كتبت لي؟

أجابت:

لقد وجدت عنوانك في مفكرة كزافيير. وكنت أعلم أنكما كنتما صديقين حميمين يوماً ما.

- لماذا يجب أن يغضب إذاً؟

وضعت يدها على فمها كأنما تحاول جاهدة حبس البكاء. قالت:

- لقد غدا سيئاً للغاية في الآونة الأخيرة، لقد كان مريضاً.

- ولكن ماذا كان يعمل؟!

ردت:

- كان يمتهن التجارة. لست أدري بالضبط، إنه لم يقل لي شيئاً البتة، لم يعد طيباً أبداً كما كان.

- أي نوعٍ من التجارة؟

ردت:

- لست أدري. لم يكن يروي لي أي شيء. كان يصمت في بعض الأحيان لأيام عديدة، ثم ما يلبث أن ينتابه الجزع على حين غرّة فينفجر غاضباً.

- متى جاء إلى هنا؟

أجابت:

- السنة الفائتة. كان قادماً من جوا. كان يتاجر معهم، ثم ما لبث أن اعتراه المرض.

- من هم؟

ردت:

- أولئك. إنهم من جوا، من جوا. لست أدري.

جلست على الأريكة بجانب السرير. لم تعد تبكي الآن. تبدو أنها أميل إلى الهدوء. قلت:

- لِتحتسي شيئاً ما. ثمة مشروب في هذا الدولاب، إنها زجاجة تساوي خمسين روبية.

توجهت صوب الخزانة وتناولت زجاجة صغيرة مملوءة بسائل برتقالي اللون هو شراب المندرين، ثم عدت ألح في السؤال:

- ولكن حاولي تذكر أي شيء، الاسم أو أي شيء آخر. من كان أولئك؟

خفضت رأسها. انتابها البكاء مرة أخرى، ثم ردت:

- أولئك من جوا، من جوا، لست أدري. لقد كان مريضاً.

صمتت برهة. سحبت نفساً عميقاً، ثم قالت:

- أحياناً، كان يبدو غير مبال بأي شيء حتى بي أنا، والشيء الوحيد الذي كان يهتم به هو رسائل مادراس. لكنه سرعان ما يعود في اليوم التالي إلى ما كان يعاني منه.

- أية رسائل؟

- رسائل مادراس.

ردت بسذاجة وكأنها تعطي معلومة مفروغاً منها، فعدت ألح:

- ولكن من من؟ من كان يكتبها إليه؟

قالت:

- لست أدري، إنها جمعية، لا أتذكر. إنه لم يجعلني أقرأها أبداً.

سألت مرة أخرى:

- وهل كان يجيب على تلك الرسائل؟

أجابت فيمالاسار ساهية:

- أجل، كان يجيب. أعتقد ذلك. كان يمضي ساعات طوالاً وهو يكتب.

قلت:

- أرجوك، حاولي الاجتهاد في تذكر أية جمعية كانت تلك.

قالت:

- لست أدري، أظن أنها جمعية دراسية. لست أدري بالضبط يا سيدي.

صمتت برهة أخرى ثم تابعت:

- لقد كان طيباً صافي الطوية لكنه حزين السجية.

كانت قد تركت كفيها متشابكين. أصابعها طويلة وجميلة، لكنها سرعان ما حدجتني بنظرة خاطفة كما لو أنها تذكرت بغتة شيئاً ما، هتفت:

- الجمعية الثيوصوفية[2].

بدا وكأنما ندت عنها ابتسامة للمرة الأولى. قلت:

- أنصتي. احكي لي بهدوء كل ما يمكن أن تتذكريه، كل ما يمكن أن تقوليه لي.

تناولت قدحاً آخر، جرعته ثم شرعت تروي. كان حديثاً طويلاً مسهباً مملوءاً بالتفاصيل. حدثتني عن قصتهما، عن شوارع بومباي، عن رحلات إلى باسيين والفانتا أثناء العطلات ثم إلى حديقة فيكتوريا إبان الظهر وهما مستلقيان على المروج، عن السباحة في شاطئ تشاوباتي عندما تبدأ قطرات المونسون الأولى في الهطول. عرفت كيف تعلم كزافيير الضحك، ما الذي يثير الضحك في نفسه، كيف كان مأخوذاً بمرأى الشمس وهي تأفل خلف بحر عمان، ثم عن النزهات على الشاطئ عند الشفق. من المؤكد أنها كانت قصة مشذبة من كل بؤس، لقد كانت قصة حب.

قالت:

- لقد كتب كزافيير أشياء كثيرة، ثم في أحد الأيام أحرق كل شيء. لقد كان هنا في هذا الفندق. تناول طستاً من النحاس وضع فيه كل شيء ثم أحرقه.

- لماذا؟

ردت:

- لقد كان مريضاً. كان الحزن قدره المحتوم.

كان الليل -لابد- آخذاً بالأفول عندما انصرفت فيمالاسار. لم أنظر إلى ساعتي وإنما أسدلت الستائر على النافذة ثم استلقيت على السرير. وقبل أن تغشاني الإغفاءة، تناهى إلى سمعي صراخ بعيد. لعله صلاة، أو ربما ابتهال إلى اليوم الجديد الذي بدأ ضياؤه يبزغ.

---

[2] الجمعية الثيوصوفية: هي جمعية دينية تأسست عام 1875 من قبل "هيلينا بتروفنا بلافاتسكي"، وهي تقول بإمكانية المعرفة المباشرة للألوهية. هذه النظرية تتقاطع مع علوم غامضة وهي ترجع في أصولها إلى بعض الديانات الهندية القديمة. وفي القرنين السادس عشر والسابع عشر، طُرحت مقولة بإمكانية الجمع بين علم الطبيعة والله. (المترجم)

[2]

- ما اسمه؟

أجبت:

- كزافيير.

تساءل:

- هل هو داعية؟

ثم أردف:

- إنه بالتأكيد ليس إنكليزياً، أليس كذلك؟

قلت:

- كلا، إنه برتغالي. ثم إنه ليس داعياً أو مبشراً. إنه برتغالي مفقود في الهند وحسب.

هز الطبيب رأسه موافقاً. جعلت باروكته اللماعة تنزاح قليلاً إثر كل حركة كقلنسوة من المطاط. قال:

- في الهند يضيع الكثيرون، إنه بلد مخلوق من أجل شيء كهذا.

وافقت ثم رحت أحملق فيه وراح هو الآخر يرمقني بنظرات خالية من أي اهتمام، وكأن كل شيء كان مجرد مصادفة، أو أن الأشياء هكذا لأنها يجب أن تكون هكذا.

تساءل:

- هل تعرف كنيته؟ قد يكون هذا مفيداً في بعض الأحيان.

أجبت:

- جاناتا بينتو. إن له أصولاً هندية قديمة. أعتقد أن جده الأكبر كان ينحدر من جوا. هذا على الأقل ما كان يدعيه.

أومأ الطبيب وكأنه أراد الإيحاء بأن هذا كافٍ. بالطبع لم يكن ينوي قول شيء كهذا. قلت:

- آمل أن يكون لديكم أرشيف!

ابتسم ابتسامة جزئية، بل ومؤثرة. كانت أسنانه ناصعة البياض وإن يكن القسم العلوي منها ناقصاً. تمتم:

- أرشيف...

كانت نبرة متوترة، تلوح القسوة فيها. حدجني بنظرة صارمة، لعلها كانت تنطوي على شيء من المقت، ثم قال بجلافة:

- هذا مشفى بومباي. دع جانباً كل هذه التسميات الأوروبية، إنها مجرد ترف متغطرس.

صمت، وظل أيضاً غارقاً في السكون. أخرج علبة تبغ من جيب قميصه ثم تناول سيجارة منها.

خلف مكتبه عُلّقت على الجدار ساعة كبيرة لم تكن تعمل. كانت تشير إلى السابعة. وكأنه قرأ على الفور أفكاري فقال:

- إنها معطلة منذ أمد. على كل حال، إنه منتصف الليل.

قلت:

- أعلم ذلك، فقد كنت أنتظرك من الثامنة. لقد قال لي الطبيب المناوب في النهار إنك من الجائز أن تكون الوحيد القادر على مساعدتي، وقال بأنك تملك أكثر من ذاكرة واحدة.

ابتسم مجدداً. كانت ابتسامته حزينة ومؤثرة. خمنت أني قد جانبت الصواب مرة أخرى. ربما لا يكون من دواعي الفخر امتلاك أكثر من ذاكرة واحدة في مكان كهذا.

تساءل:

- هل كان صديقاً لك؟

أجبت:

- إلى حد ما، يوماً ما.

- متى كان يتلقى العلاج في المشفى؟

- أواخر المونسون[3] منذ حوالي سنة حسبما أعتقد.
قال:
- منذ سنة!، إن هذا كثير.
ثم أردف:
- المونسون فصل رديء، ويأتي الكثيرون هنا في حالات مشابهة.
أجبت:
- يمكنني تخيل ذلك.
دس رأسه بين يديه كما لو كان يطرق مفكراً، أو لعله كان جد متعب.
- يصعب عليك تخيل ذلك. هل بحوزتك صورة فوتوغرافية له؟
كان سؤالاً بسيطاً وعملياً، لكني تعثرت في الإجابة، ذلك أني كنت أحس أنا أيضاً بأهمية الذاكرة، وأدرك في الوقت عينه عدم كفايتها. حقيقي، ما الذي يمكنني تخيله من وجهة؟ لا.. لم أكن أملك صورة له. لا أملك سوى الذاكرة، وهي في النهاية ستبقى ذاكرتي أنا، وليس من الممكن وصفها. لقد كان مجرد انطباع أحمله عن كزافيير. قلت وأنا أجتهد في التذكر:
- إنه رجل طويل مثلي، نحيل ذو شعر ناعم، تقريباً في مثل سني، وهو يشبهك في بعض الأحيان يا دكتور. عندما يبتسم يلوح الحزن بادياً عليه.
قال:
- إنه وصف ناقص. لكن لا يهم. إني لا أذكر كائناً كان باسم جاناتا بينتو على الأقل في هذه اللحظة.
كنا نقبع في غرفة رمادية اللون عارية، في عمقها حوض من الإسمنت ملتصق بالجدار كأنه مغسلة. كان مكتظاً بالأوراق، وبجانبه طاولة طويلة تناثرت الأوراق عليها أيضاً. نهض الطبيب وتوجه إلى قلب الغرفة. بدا لي كأنه يعرج. راح يقلب الأوراق الموزعة فوق الطاولة. من بعيد كانت تبدو لي أشبه بأوراق دفتر، أو قصاصات من ورق بني، أوراق صناديق.
قال:

---

[3] المونسون: فصل من فصول المحيط الهندي. ريح تدفع المياه المحيطية في الشتاء من البر الى البحر، وفي الصيف من البحر إلى البر – (المترجم)

- هذا هو أرشيفي، إنها كلها مجرد أسماء.

ظللت ثاوياً قرب الطاولة الصغيرة أُجيل الطرف في هذه الأشياء التي انهمك فيها. كان ثمة كرة من الكريستال في داخلها صورة لجسر لندن. وصورة مؤطرة لمنزل يشبه "الشاليه السويسري". كل هذا بدا لي غير معقول. عبر إحدى نوافذ الشاليه كان يظهر وجه نسائي، لكن الصورة كانت كامدة وغير مزينة.

تناهى إليّ سؤاله من أعماق الغرفة:

- إنه ليس مدمن مخدرات أليس كذلك؟ ذلك أننا لا نستقبل المدمنين هنا.

بقيت صامتاً خافض الرأس، ثم ما لبثت أن رددت:

- لا أعتقد ذلك، لست أدري بالضبط.

- ولكن كيف تسنى لك أن تعرف أنه جاء إلى المشفى، هل أنت متأكد من ذلك؟

- لقد أنبأتني بذلك مومس من فندق كهاجوراهو، حيث كان يقيم هناك السنة الفائتة.

تساءل:

- وأنتَ!، هل تقيم هنا أيضاً؟

- لقد قضيت الليلة الماضية هناك، لكني سوف أغادر غداً. أحاول أن لا أمكث في فندق واحد أكثر من ليلة طالما كان هذا ممكناً.

تساءل مرتاباً:

- لِمَ؟

كان يحمل بين ذراعيه حزمة من الأوراق، مرسلاً نظراته إليّ من تحت نظارتيه.

قلت:

- هكذا، يروق لي أن أُبدِّل كل ليلة. كل ما بحوزتي هو هذه الحقيبة الصغيرة.

- وهل استقر رأيك على مكان معين بالنسبة لغد؟

قلت:

- ليس بعد. أظنني راغباً بفندق مريح أكثر، لنقل أكثر ترفاً.

قال:

- تستطيع الذهاب إلى "تاج محل". إنه أفخم فندق في آسيا كلها.

أجبت:

- قد لا تكون فكرة سيئة.

غمس ذراعيه في الحوض المكتظ بالأوراق وهو يقول:

- كم من الناس!

كان يقعي على طرف الحوض وهو ينظف نظارتيه، ثم يفرك عينيه بمنديل كما لو كانتا متعبتين أو مهتاجتين. قال:

- تراب.

تساءلت:

- الأوراق!...

أخفض عينيه، ثم استدار نحوي قائلاً:

- الأوراق، الناس.

تناهى إلى مسامعنا من بعيد دوي ثقيل كما لو كانت صفيحة من الحديد انزلقت على السلم. قال وهو يترك الأوراق تسقط من يديه:

- أعتقد أنه من غير المجدي البحث عنه بين هذه الأسماء.

نهضت بتلقائية. خمنت أن الأوان قد أزف لكي أرحل، أو أن هذا هو ما رمى إليه. لكنه بدا غير منتبه إلى ذلك. توجه صوب خزانة معدنية صغيرة كان يبدو أنها قد دهنت باللون الأبيض منذ أمد طويل. تناول بعض الأدوية ودسّها في جيوب قميصه. ظننت أنه يفعل ذلك اعتباطاً ودون أن يختار منها شيئاً محدداً.

قال:

- أعتقد أن الطريقة المثلى للعثور عليه تكمن في الذهاب بحثاً عنه. لقد أزف أوان قيامي بجولتي المعتادة، ويمكنك مصاحبتي إن رغبت بذلك.

توجه صوب الباب. فتحه قائلاً:

- سوف تكون جولتي هذه الليلة أطول من المعتاد، ولكن من الجائز أنك لا تجد قدومك معي نافعاً.

نهضت وتبعته قائلاً:

- أعتقد أنه نافع. هل أستطيع اصطحاب حقيبتي معي؟

كان الباب يفضي إلى رواق أشبه ببهو سداسي الأضلاع تتفرع الممرات من جنباته. كان مملوءاً بالشراشف والأكياس والأغطية الرمادية. بعضها كان ملطخاً بألوان بنفسجية وبنية. دلفنا في الممر الأول إلى يميننا. عند العتبة، كان ثمة عارضة مكتوب عليها باللغة الهندية. بعض الحروف كانت قد سقطت تاركة فراغات بيضاء بين الأحرف الحمر.

قال:

- لا تمس أي شيء ولا تقترب من المرضى. أنتم الأوروبيون مرهفون جداً.

كان الممر طويلاً جداً، مدهوناً بلون سماوي كئيب، وقد اسودّت أرضيته بسبب الصراصير التي راحت تتقافز تحت أحذيتنا، وكنا نجاهد كيلا ندوسها.

قال الطبيب:

- سوف نقضي عليها، لكنها لن تلبث أن تتكاثر بعد شهر. لقد غدت الجدران آيلة للسقوط، وقد يتوجب علينا أن نهدم المستشفى.

كان الممر يفضي إلى رواق آخر شبيه بالأول لكنه أضيق وخالٍ من النور وتكلله الستائر.

- ماذا كان يشتغل السيد جاناتابينتو؟

سألني وهو يزيح الستارة. كدت أجيب، مترجماً فورياً، وهو ما اعتقدت أنه يجب أن أقوله، لكني قلت:

- كان يكتب القصص.

تمتم:

- هم. انتبه، ثمة درج هنا. وعن أي شيء تتحدث قصصه؟

قلت:

- آه. في الحقيقة لست أدري كيف أشرح الأمر لك. حسناً، لنقل إنها كانت تتحدث عن أشياء غير متحققة، عن أخطاء؛ إحداها مثلاً، تتحدث عن رجل أمضى حياته كلها يحلم بالقيام برحلة ما، وحين سنحت له الفرصة للقيام بها، بالضبط في ذلك اليوم، تنبه إلى أنه لم يعد راغباً في القيام بها.

قال الطبيب:

- لكنه قام بها.

قلت:

- في الواقع، يبدو الأمر بالفعل كذلك.

ترك الطبيب الستارة تسقط خلفنا. قال:

- هنا في الداخل، يوجد مئة شخص. أخشى أن لا يكون المنظر لطيفاً بالنسبة لك. إنهم أولئك الذين مضى على وجودهم هنا ردح من الزمن. من الجائز أن يكون صديقك واحداً منهم، وإن كنت أميل إلى استبعاد أمر كهذا.

تبعته. فولجنا أكبر غرفة رأيتها في حياتي. كانت أشبه بقاعة رحبة الأرجاء وعلى طول الجدران كان ثمة ثلاثة صفوف من الأسرّة. مضاجع بائسة. من أعلى السقف تتدلى مصابيح باهتة الأضواء. توقفت برهة لأن الرائحة كانت جد قوية. بجانب المدخل كان يقرفص رجلان يرتديان أسمالاً بالية. وما أن لمحانا حتى ابتعدا.

قال الطبيب:

- لا لا يمكن لمسهما. إنهما مكلفان بحاجات المرضى الجسمانية. لا يوجد من يؤدي هذه الوظيفة غيرهما. هكذا هي الهند.

على السرير الأول كان يرقد عجوز عارياً وجد نحيل. كان يبدو ميتاً لكن عينيه كانتا مفتوحتين وقد جعل يرمقني بنظرة خالية من أي تعبير. عضوه التناسلي كان ضخماً للغاية، وقد شُدّ إلى بطنه. اقترب الطبيب منه. جسّ جبينه. خيل إليّ أنه دسّ في فيه بعض الأدوية، لكن لم أتبين ذلك بجلاء لوقوفي عند قدمي المريض.

قال الطبيب:

- إنه "مسكين"، تمت التضحية بأعضائه التناسلية إلى الله. ذلك أنه كان يجتذب النساء العاقرات، لكنه لم يحدث له أن أنجب في حياته.

تنحى مبتعداً، فتبعته. كان يتوقف عند كل سرير. وكنت أقف مبتعداً قليلاً وأنا أرقب وجه المريض. كان يطيل الوقوف عند بعض المرضى. يتمتم بضع كلمات. يوزع الأدوية. عند البعض الآخر، وهو يمر مسرعاً، جسّ جباههم وحسب. كانت الجدران ملطخة باللون الأحمر بسبب ما أحدثه بصق نبات "التنبول" الممضوغ. كان الحر خانقاً، أو لعل الرائحة كانت ثقيلة ومن ثم تثير هذا الشعور بالاختناق. حتى المراوح في السقف كانت معطلة.

فيما بعد، عاد الطبيب أدراجه، فتبعته غارقاً في الصمت. قال:

- إنه غير موجود بين هؤلاء.

أسدل الستارة من جديد على الرواق برقة وتقدمني.

قلت:

- إن الحر لا يُطاق هنا. ومع ذلك فالمراوح متوقفة لا تعمل. إن هذا غير معقول.

رد:

- في بومباي ينخفض الضغط جداً في الليل.

- ومع ذلك يوجد لديكم مفاعل نووي في ترومباي. لقد شاهدت المدخنة من على الشاطئ.

ابتسم لي واهناً، ثم قال:

- تُسخَّر الطاقة بأسرها من أجل المصانع، ثم من أجل الفنادق الضخمة، ثم إلى حي مارديان درايف. هنا يجب علينا أن نرضخ للأمر الواقع وحسب.

كان يسير عبر الممر، متجهاً بعكس الاتجاه الذي جئنا منه، ثم قال مختتماً:

- هكذا هي الهند.

سألته:

- هل تلقيت دراستك هنا؟

توقف وحدجني بنظرة. خلت أني ألمح في عينيه بريقاً من الحنين، قال:

- لقد درست في لندن، ثم تخصصت في زيوريخ.

سحب علبة تبغه، تناول سيجارة منها، وتابع يقول:

- إنه تخصص غير معقول بالنسبة للهند. أنا أخصائي في أمراض القلب ولكن هنا لا يوجد مرضى قلب. فقط أنتم في أوروبا تموتون بالسكتة القلبية.

تساءلت:

- ومن أي شيء يموت الناس هنا؟

- كل ما ليس له صلة بأمراض القلب. سفلس، سل، جذام، تيفوئيد، تعفن الدم، كوليرا، التهاب السحايا، بلاغرا، دفتريا، وأشياء أخرى. ولكني شغوف بدراسة القلب. تأسرني دراسة هذه العضلة التي تتحكم في حياتنا. هكذا.

جعل يحرك كفه وهو يفتح قبضته ويضمها.

- من الجائز أني كنت أعتقد بإمكانية اكتشاف شيء ما في داخلها.

كان الممر ينتهي بباحة صغيرة مغطاة، وكان ثمة ممشى منخفض مرصوف بالفخار.

سألته:

- هل أنت مؤمن؟

قال:

- كلا، أنا ملحد. أن تكون ملحداً في الهند، هذا هو التجديف بعينه.

اجتزنا الباحة، ثم توقفنا أمام باب الممشى. قال:

- هنا في الداخل، يمكث المرضى الذين لا أمل في شفائهم. هناك احتمال ضئيل أن يكون صديقك بينهم.

تساءلت:

- وممّ يشكون؟

أجاب:

- كل ما يمكن أن يخطر على بالك. ولكن، قد يكون من الأفضل أن تغادر الآن.

قلت:

- هذا ما أعتقده أنا أيضاً.

قال:

- سوف أصطحبك.

- كلا. لا تثقل على نفسك. أرجوك. سوف أجد طريقي عبر هذه البوابة بجانب السور. أعتقد أني في الطريق الصحيح.

قال:

- إني أُدعى جانشن. إنه الإله السعيد الذي يحمل وجه فيل.

بدوري قدمت له نفسي قبل أن أبتعد. كانت بوابة الخروج على بعد خطوات هناك، خلف دغلة الياسمين. كانت مشرّعة. ولما استدرت خلفي كان لا يزال يتحدث. قال:

- هل يتوجب عليّ إبلاغه بشيء ما إذا ما صدف والتقيت به؟

قلت:

- كلا. أرجوك. لا تقل له شيئاً البتة.

رفع باروكته كم لو كانت قبعة، مؤدياً لي تحية مرحة. خرجت إلى الشارع. كان الشفق قد بدأ بالتوهج، وقد جعل السابلة يستيقظون من سباتهم، بعضهم كان يطوي بين يديه حصائر الهجيع الليلية. كان الشارع مملوءاً بالغربان التي جعلت تتقافز حول روث البقر. وإلى جانب سلم المدخل، اصطفت سيارة أجرة. كان السائق بداخلها ما يزال يغالبه النعاس، مسنداً ذقنه إلى النافذة. صعدت قائلاً:

- تاج محل.

[3]

كانت الغربان هي الأحد عشر قاطناً في بومباي، والتي لم تكن تأبه لـ«حق الدخول» إلى تاج محل، تحط ببطء على شرفة (Inter-Continental) وتركن على نوافذ (Moghul) البناء العتيق. في حديقته، تندس بين أغصان المانجو، تتقافز فوق البساط العشبي الذي يطوق المسبح، تقتنص الماء مستسقية إياه من أطرافه. وقد تتجرأ على الذهاب إلى نقر قشور البرتقال المغموسة في أكواب «المارتيني» إذا لم يأت حارس حازم، بلباسه الرسمي، ويطردها بقضيب الكريكت. كأنها لعبة غير معقولة يقودها مخرج متهور. يجب الاحتراس من الغربان، ذلك أن مناقيرها قذرة للغاية. وقد ارتأى المجلس البلدي إغلاق مخازن المياه الضخمة لأنه سبق وقامت بعض الطيور الهائمة في «دائرة الحياة» بالتهام أجزاء من الجثث التي يسجيها الـ«بارزي»[4] فوق أبراج الصمت (ثمة العديد من هذه الجثث في منطقة مالابار هيل) كما حدث أن ألقت نُتَفاً من هذه الجثث في الماء. لكن اللجوء إلى هذه الأساليب من هذا القبيل لم يحل المشكلة أبداً، ذلك أن هناك مشكلة الجرذان والحشرات، ثم تسرب مياه المجاري. من الأفضل الامتناع عن شرب الماء في بومباي.

الأمر مختلف في تاج محل، حيث يتمتع بخزانات خاصة به. وقد اشتهرت مياهه بنقائها، ذلك أن تاج محل ليس فندقاً، بل هو إضافة إلى الثمانمئة غرفة التي يضمها، يعد مدينة داخل مدينة. ما إن دخلت هذه المدينة حتى تلقفني خادم يرتدي زي أمير هندي، عمامة ونطاقاً بلون أحمر. اقتادني حتى البوابة النحاسية، حيث ثمة موظفون آخرون متنكرون بزي المهراجا. ربما حسبوني أنا الآخر متنكراً، ثرياً بزي فقير. وقد بذلت جهوداً فائقة للعثور على غرفة لي في جناح النبلاء، ذي الأثاث التقليدي، والمطل على «بوابة الهند». للوهلة الأولى كدت أصرح لهم بأنني هنا كي أرقد بسكينة وحسب، وليس من غايات جمالية، وإنهم كانوا قادرين على توفير ذلك لي في غرفة ذات أثاث عصري. حتى ناطحة

---

[4] البارزي، PRASI: هم بقايا الفرس الذين هاجروا الى الهند في القرن الثامن (المترجم)

السحاب في (Inter-Continental) يمكنها أن تكون ملائمة لي. وقد بدا لي فيما بعد أمراً محرجاً الإيحاء لهم بشيء من هذا القبيل. لكني على كل حال رفضت ارتداء «لباس الطواويس» وقد أوضحت لهم أني أريد الحفاظ على الأسلوب الذي ارتضيه لنفسي هنا. كانت الغرفة فخمة للغاية، وقد سبقتني إليها حقيبتي الصغيرة عبر طرق سحرية، وجدتها مركونة على كرسي. كان المغطس مملوءاً بالماء والصابون. انغمست في داخله، ثم جففت جسدي بمنشفة قطنية. كانت النوافذ تطل على بحر عمان، وكان النهار صافياً تقريباً، على حين راح النوم الأحمر يصبغ الشاطئ. أسفل تاج محل تبدو الحياة زاخرة. الستائر المخملية كانت تنساب بحلاوة وطرواة، ثقيلة مثل ستائر المسرح. أسدلتها على البلد، فغرقت الغرفة في العتمة والسكون. طنين المراوح الضخمة يأتي متثاقلاً ومريحاً وقد راح يهدهدني. فكرت بأن هذا مجرد ترف زائد، ذلك أن جو الغرفة كان منعشاً.

حلقت فوراً إلى محراب فوق إحدى جبال المتوسط. كان المحراب أبيض اللون وكان القيظ لاذعاً، وكنا نشعر بالجوع. صار كزافيير يقهقه وهو يتناول الساندويتشات والنبيذ المنعش من داخل الكيس. حتى إيزابيل انخرطت في الضحك، على حين بسطت ماجدة بطانية فوق العشب. وبعيداً، أسفل الجبل، امتدت زرقة البحر. وكان ثمة حمار يتسكع منفرداً في ظل الصومعة. لم يكن هذا حلماً، كان ذكرى حقيقية. كنت أحدق في ظلمة الغرفة، فأرى المشهد البعيد وقد بدا لي أشبه بالحلم، ذلك لأني نمت ساعات طويلة. كانت ساعتي تشير إلى الرابعة بعد الظهر.

مكثت طويلاً في سريري أفكر في تلك الأيام الخوالي. كم من البلدان! كم من الوجوه! كم من الأيام! تذكرت رحلة بالسيارات عبر غابات الصنوبر. تذكرت الأسماء التي كنا نتقمصها، قيثارة كزافيير، صوت ماجدة الرنان وهو يدوي رزيناً ساخراً مقلدة دعاة العروض: أيها السيدات والسادة، قليل من الانتباه؛ معنا البلبل الإيطالي. كنت قد استمرأت اللعبة، ورحت أدندن بأغانٍ نابوليتانية قديمة، مقلداً المطربين القدماء وأغنيات الماضي وقد تلبست هذا. إنه المقطع الأول من (Roxinol) وهي كلمة تعني بلبلاً

باللغة البرتغالية. كانت مناداتي بهذا الاسم الأجنبي ممتعة للغاية، ولم تكن أبداً أمراً يثير أي نوع من أنواع الغضب.

ثم جاءت الأصياف القادمة. كانت ماجدة تبكي. فكرت: لماذا؟ هل كان هذا صحيحاً؟ وإيزابيل! وأوهامها!

ولما بدأت تلك الذكريات تلبس أطراً ثقيلة الوطأة، وغدت واضحة وكأنها تُعرَض من جهاز على الجدران، نهضت وغادرت الغرفة.

إنها السادسة مساءً. الوقت مبكر جداً من أجل العشاء ومتأخر جداً بالنسبة للإفطار. ولكن في تاج محل، وحسبما يقول دليلي السياحي، وبفضل مطاعمه الأربعة، يمكن تناول الطعام في أية ساعة كانت. في الطابق الأخير لـ«أبولو بوند» كان الموعد. كانت الأسعار باهظة للغاية، لكنه كان لطيفاً جداً. توقفت قليلاً في «بار أبولو». اخترت طاولة ملاصقة لزجاج الشرفة، متأملاً أضواء المساء الأولى. كان شاطئ البحر إكليلاً من الأنوار. تناولت كأسين من "جين تونيك"، فتسللت النشوة والراحة إلى داخل نفسي. بدأت أكتب رسالة إلى إيزابيل. كتبت طويلاً، هكذا وبحماس متزايد، ودونما تفكير حدثتها عن الأيام الماضية. حدثتها عن كل شيء، عن رحلتي، وكيف أن الأحاسيس تزهر بعد مرور الزمن. قلت لها أشياء لم أكن لأقولها أبداً. وعندما أعدت قراءة الرسالة من جديد، وقد غمرتني فرحة ساذجة بسبب ما شربته، تنبهت إلى أن الرسالة كانت موجهة إلى ماجدة. في الواقع، كنت قد كتبتها لها، حتى ولو أنني كنت أقول: "عزيزتي إيزابيل". وهكذا كومت الأوراق في يدي، ضغطت عليها، ثم تركتها تسقط في صحن السجائر، ومن ثم نزلت إلى الطابق الأرضي.

دلفت إلى داخل مطعم التانجور. طلبت عشاءً فاخراً، بالضبط كما يمكن أن يفعل أمير متنكر بزي فقير. وما إن انتهيت من تناوله حتى كان الليل قد هبط. بدأت الحياة تدب أكثر فأكثر في تاج محل. الأضواء تتلألأ، وعند حافة المسبح، وقف الخدم بأزيائهم الرسمية متأهبين لطرد الغربان. جلست فوق أريكة وسط هذه القاعة الهائلة الاتساع، كأنها ملعب لكرة القدم، ثم رحت أحدق في هذه الأبهة.

لا أذكر بالضبط من القائل، إن التحديق، مأخوذاً كنشاط صرف، ينطوي في أغلب الأحيان على نوع من السادية. حاولت تذكر الاسم فلم أفلح، ولكن خيل إليّ أن هذه المقولة قد تنطوي على شيء من الحقيقة. وهكذا أخذت تنمو في داخلي باطراد مستمر

الرغبة في التحديق بقوة أكبر، وأنا أحس إحساساً كاملاً بأني مجرد عينين تنظران. في حين كنت أحس نفسي وكأنها في مكان آخر، دون أن أدري بالضبط أين. كنت أنظر إلى النساء، المجوهرات، العمائم، الطرابيش، الخمور، أذيال الأثواب، فساتين السهرة، المسلمين والأثرياء الأمريكان، ملوك البترول، الخدم الصامتين بملابسهم ناصعة البياض. كنت أنصت إلى القهقهات، جمل مفهومة أو غير مفهومة، همسات، خشخشات. لم يكن هذا كله ليتوقف طوال الليل، وحتى الشفق. وما إن بدأت الأصوات تخمد والأضواء تخفت حتى أسندت رأسي إلى وسادة الأريكة وغرقت في النوم.

لم أغف مدة طويلة لأن الزورق الأول المنطلق إلى «الألفانتا»، بالضبط مقابل تاج محل، كان يشير إلى السابعة. وعلى هذا الزورق كان ثمة يابانيان في مقتبل العمر، يحملان آلة تصوير، وكنت أنا أيضاً.

[4]

قال الرجل الذي كان يتهيأ للاضطجاع في سريره المجاور لسريري:

- ما الذي نفعله، بالضبط، ونحن محشورون داخل هذه الأجساد.

لم تكن نبرته استفهامية. قد لا يكون هذا سؤالاً بل ربما مجرد تأمل بطريقته الخاصة. على كل حال، كان الإعياء سينتابني حتماً قبل أن أفلح في الإجابة على سؤال كهذا. كانت الأنوار المنبعثة من أرصفة المحطة صفراء اللون، وهي تلقي على الجدران المهترئة ظلاً ناحلاً، راح يتراقص بخفة في أرجاء الغرفة. كانت حركته سوداء هادئة ورشيقة، وقد بدا لي وهو يتحرك بهذه الطريقة أشبه بالهنود. من بعيد، تناهى إلينا صوت بطيء رتيب النغمة. لعله صلاة، لعله يعبر عن شكوى يائسة، تماماً كتلك الشكاوى التي لا تحمل في داخلها سوى التعبير عن نفسها ودون أن تطلب شيئاً. لقد كان من المستحيل عليّ أن أفهم منه شيئاً. هكذا هي الهند، عالم من أنغام كتيمة، غير مميزة، وغير محددة.

قلت:

- من الجائز أننا نسافر في داخلنا.

كان قد مرّ -ولابد- بعض الوقت على سؤاله. تهت خلاله في تأملات نائية. ومن غير المستبعد أن تكون قد تخللته دقائق نوم. لقد كنت جد مرهق.

تساءل:

- ماذا قلت؟

أجبت:

- كنت أعني الأجساد. قد تكون مجرد حقائب، ونحن نتنقل حاملين إياها.

فوق الباب كان ثمة ضوء صغير وأزرق، كذلك الذي نجده في عربات القطارات الليلية. وقد بدا مخضراً وخصباً بالضوء الأصفر من النافذة كأنه حوض أسماك. حدقت فيه. تحت هذا الضوء الأخضر، والذي بدا لي حزيناً، كنت ألحظ رسماً لوجه مستطيل، ذي أنف نسري الشكل بعض الشيء، ويدين فوق الصدر.

قلت متسائلاً:

- هل تعرف مانتينيا؟

كان سؤالي غير معقول، لكنه ليس أكثر استحالة من سؤاله على أية حال.

قال:

- لا. هل هو هندي؟

قلت:

- إنه إيطالي.

قال:

- إني لا أعرف سوى إنكليز. جميع الأحد عشر أوروبياً الذين أعرفهم هم إنكليز.

تصاعد الأنين القادم من بعيد شيئاً فشيئاً. إنه الآن أكثر حدة، وقد خيل إليّ أنه لإحدى بنات آوى.

تساءلت:

- أهو حيوان؟ ماذا تعتقد؟

رد بصوت منخفض:

- كنت أعتقد أنه صديقك.

قلت:

- كلا، كلا. إني أعني هذا الصوت القادم من الخارج. إن مانتينيا فنان، ولم يصدف أن تعارفنا، فقد مات منذ قرون.

تنفس الرجل بعمق. كان يرتدي الأبيض، لكنه لم يكن مسلماً. هذا ما خمنته، قال:

- لقد سبق لي أن كنت في إنكلترا، وكنت أجيد الفرنسية أيضاً. يمكننا أن نتفاهم بالفرنسية لو رغبت بذلك.

كانت نبرته محايدة تماماً، كما لو كان يدلي بتصريح أمام أحد المكاتب الحكومية. ولست أدري لماذا أثار هذا قلقي!

قال بعد ثوان:

- إنه جانشي[5]. يبكي شر العالم.

قلت

- آه. حسناً.

لقد أدركت أنه يعني ذلك الأنين القادم من الخارج. قال، وكانت نبرته أشبه بدليل سياحي يدلي ببعض الشروحات:

- في بومباي، لا يوجد الكثير من الجانيشيين. في الجنوب نعم. إنهم جد كثيرين هناك. إنه دين جميل جداً، لكنه ساذج أيضاً.

لفظ ذلك دون أي امتعاض. كانت نبرته ما تزال خاوية، وقد بدا كمن يشرح شيئاً ما.

قلت:

- وأنتَ! ما عساك تكون؟! أرجو أن تعذر لي تطفلي.

رد:

- أنا جانيشي.

دقت ساعة المحطة منتصف الليل، فخرست الشكوى البعيدة بغتة، كأنها كانت تنتظر دقات الساعة. قال الرجل:

- إنه يوم آخر. لقد بدأت يوماً آخر اعتباراً من هذه اللحظة.

بقيت غارقاً في الصمت. لم يكن تصريحه هذا ليترك أي مجال للحوار. مرت بضع دقائق، وقد بدا أن الأضواء المنبعثة من أرصفة المحطة أخذت تخبو... كان تنفس صديقي قد غدا بطيئاً كأنه كان نائماً. وعندما عاد يتكلم، بدت نبرته متوقدة.

قال:

- إني ذاهب إلى فاراناسي. ما هي وجهتك أنتَ؟!

أجبت:

- إلى مادراس.

ردد:

---

[5] الجانيزية: دين ظهر في الهند في القرن السادس قبل الميلاد، تنحدر من البراهمية، تنادي بالتقشف والزهد وعدم استخدام العنف ضد أي شيء حتى الحيوان والنبات. (المترجم)

- مادراس. نعم. نعم.
- أريد أن أشهد ذلك المكان الذي قيل إن القديس توما قد شنق فيه. لقد بنى البرتغاليون هناك كنيسة في القرن السادس عشر، ولست أدري ما الذي تبقى منها الآن. بعد ذلك سوف أتوجه إلى جوا، حيث أبحث في مكتبة قديمة. وهذا هو سبب قدومي إلى الهند.
تساءل:
- هل هو نوع من الحج؟
قلت:
- كلا؛ أو بالأحرى نعم. ولكن ليس بالمعنى الديني للكلمة - إنها إن شئت رحلة خاصة. لست أدري كيف أشرح لك. إني أتقصى الأمر آثاراً.
قاطعني رفيقي:
- أنت كاثوليكي على ما أظن!
أجبت:
كل الأوروبيين هم كاثوليك بطريقة أو بأخرى. أو بالأصح كلهم مسيحيون، إنه نفس الشيء على أية حال.
جعل الرجل يردد كلماتي كما لو كان يتذوق طعمها. كان يتحدث بإنكليزية أنيقة، وكان كلامه متقطعاً، وقد أخذ -بالكاد- يلفظ حروف العطف كما يحدث عادة في الجامعات. وكنت أصغي منتبهاً بالضبط إلى هذا. قال:
- «في واقع الأمر.. من جهة عملية..»، كم من الفضول تثير هذه الكلمات. لقد سبق لي أن سمعتها تردد كثيراً في إنكلترا. أنتم الأوروبيون تفرطون في استخدامها.
عاد الصمت مرة أخرى، ثم استطال بعض الشيء. لكن حدست بأنه لم يكن قد أنجز حديثه بعد، وها هو ذا يواصله قائلاً:
- لم أستطع أبداً أن أفهم ما إذا كان تشاؤماً أم تفاؤلاً. ما الذي تعتقده أنت؟
طلبت منه توضيح مقصده بجلاء أكبر فقال:

- آه. من العسير أن أوضح أكثر من ذلك. حسناً، لطالما سألت نفسي عما إذا كانت هذه الكلمات تعكس شعوراً ما بالغطرسة، أم أنها على العكس من ذلك، تنطوي على نوع من التشكك، بل وحتى الخوف أيضاً. هل تفهمني؟

قلت:

- لست أدري بالضبط. إن الأمر ليس هيناً. ولكن كلمة -عملياً- قد لا تعني عملياً أي شيء.

ضحك رفيقي. كانت هذه هي المرة الأولى التي يضحك فيها. قال:

- إنك ماهر حقاً. لقد غلبتني. ولكنك عملياً ثمّنت كلامي في الوقت عينه.

ضحكت أنا أيضاً. ثم قلت على الفور:

- على كل، الأمر في حالتي هذه -عملياً- يعني نوعاً من الخوف.

صمتنا برهة. واستأذنني رفيقي في أن يدخن. فتش في حقيبة له ركنها إلى جانب السرير، وما لبثت رائحة التبغ أن عبقت في الغرفة بأسرها. كان يدخن نوعاً من السجائر الهندية، صغيرة وذات رائحة، وقد صنعت من ورقة تبغ واحدة.

قال:

- كنت أقرأ العهد الجديد في بعض الأحيان. إنه كتاب جد غريب.

تساءلت:

- هل هو غريب وحسب؟

اعتراه بعض التردد. لكنه رد:

- إنه أيضاً مملوء بالغطرسة. إني أقول هذا بنية طيبة.

قلت:

- أخشى لأني لا أفهم بشكل جيد.

قال:

- إني أعني المسيح.

دقت المحطة مشيرة إلى الثانية عشرة والنصف. أحسست بأن الدقات تكاد تتسلط عليّ. ومن الحديقة الكبرى التي تجثم خلف سكك القطار الحديدية راح نعيق الغربان يتصاعد. قلت:

- فاراناسي هي بنارس. كم هي مدينة غريبة! هل تذهب للحج أنت أيضاً؟

أطفأ رفيقي سيجارته، ثم سعل سعالاً خفيفاً. وقال:

- إني أذهب لكي أموت. لقد بقيت لي من الحياة أيام قلائل.

أصلحت المخدة تحت رأسي، وتابع حديثه:

- جائز. إنه من المناسب جداً أن نموت. لم يبقَ لنا وقت كافٍ للنوم، فقطاري يغادر الخامسة.

قلت:

- أما قطاري فإنه يغادر بعد ذلك بقليل.

قال:

- آه. لا تخف. سوف يأتي الخادم لإيقاظك في الوقت المناسب. ولما كنا قد التقينا بهذه الطريقة، أظن بأننا لن نلتقي ثانية، على الأقل في صورة حقائبنا هذه. لذا فإني أتمنى لك سفراً سعيداً.

أجبت:

- صحبتك السلامة أنت أيضاً.

الفصل الثاني

[5]

يقول الدليل في يدي: إن أفضل مطاعم مدراس هو مطعم (Il Mysore Restaurante del Coromandel). وقد شعرت بفضول كبير للتحقق من صحة ذلك، فابتعت قميصاً أبيض من البوتيك الواقع في الطابق الأول، على الطريقة الهندية، ثم بنطالاً أنيقاً. صعدت إلى غرفتي، واغتسلت طويلاً، وأنا أنفض عن جسدي وعثاء السفر.
كانت غرفة الكوروماندل مزدانة بأثاث يعود إلى الحقبة الاستعمارية، وقد أعيد ترميمه، فغدا أنيق المظهر. كانت غرفتي خلفية تطل على فسحة يكللها اصفرار ترعرعت حوله نباتات بدائية. هي غرفة رحبة ذات سريرين عريضين غُطيا بملاءتين فاخرتين جميلتين. في الداخل، قرب النافذة كان ثمة طاولة للكتابة، لها جرار أوسط وثلاث سحابات على كل جانب. اخترت الجرار الأخير الواقع إلى اليمين، لأركن فيه أوراقي محض صدفة.
أنهيت عشائي متأخراً أكثر مما كنت أود. على كل حال، يظل «الميسور» مفتوحاً حتى منتصف الليل. كان مطعماً ذا واجهات زجاجية تطل على المسبح. الطاولات مستديرة وقد فصلت عن بعضها بخيزران مدهون بالأخضر. وراح نور أزرق يشع من حواجز الإضاءة الموضوعة فوق كل طاولة. كان الجو لطيفاً. ثمة مغنٍ وقف على أرضية مغطاة بالأحمر وقد شد نحوه الزبائن عازفاً موسيقى هادئة ورزينة. اقتادني النادل عبر الطاولات، وكان كريماً جداً معي وهو يسدي إليّ بعض النصائح فيما يخص أنواع المشروبات. تناولت ثلاثة صحون واحتسيت عصير المانجو البارد. غالبية الزبائن كانت من الهنود. ولكن على الطاولة المجاورة، كان ثمة إنكليزيان لهما هيئة المدرسين. كانا يتحدثان عن الفن الدراويدي، وقد دل حوارهما على سعة اطلاع وقدرة فائقة. وقد أمضيت السهرة أتسلى بالمقارنة بين المعلومات التي يدليان بها وبين ما هو وارد في الدليل الموجود لدي، وذلك لمعرفة مدى دقة معرفتهما بها. كان أحدهما يرتكب بين الفينة والأخرى أخطاء تاريخية؛ لكن الآخر كان، فيما يبدو، غافلاً عنها. تبدو الأحاديث التي تتاح

لك فرصة اقتناصها، صدفة، مثيرة جداً للفضول. وقد كدت أعتقد بأنهما ولابد زميلان في الجامعة. ولكن عندما أسر أحدهما للآخر بأنه راغب في إلغاء سفره بالطائرة إلى كولومبو، أدركت أن تعارفهما قد تم اليوم.

بينما كنت أهم بالخروج هيّجتني رغبة بالتوقف قليلاً عند بار الإنكليزي الواقع في ردهة المدخل، لكني تنبهت إلى أن حالة التعب التي تعتريني لا تنقصها ميزات كحولية إضافية، فصعدت إلى غرفتي.

عندما رن الهاتف، كنت منشغلاً بتنظيف أسناني. للوهلة الأولى خطر لي أنها قد تكون الجمعية الثيوصوفية التي كانت قد قطعت لي وعداً بأن تهتف إليّ، ولكن الفكرة تلاشت بينما كنت أتوجه صوب الهاتف، ذلك أن الوقت متأخر جداً. ثم تذكرت بأني كنت قد أخبرت البوابة قبيل العشاء بأن ثمة صنبوراً معطلاً. وحقاً كانت البوابة قد أقبلت لتقول لي:

- أرجو المعذرة سيدي، هناك سيدة ترغب في التحدث إليك.

أجبت وفرشاة الأسنان محشورة في فمي:

- عفواً. ماذا قلت؟

كررت:

- هناك سيدة ترغب في التحدث إليك.

تناهى إلى مسمعي صوت العداد التلفوني ممتزجاً بصوت نسائي منخفض وثابت.

قالت:

- أنا من كانت تشغل الغرفة قبلك. لدي رغبة ملحة في التحدث إليك. انتظر عند بهو المدخل.

قلت:

- إذا أمهلتني خمس دقائق، سوف ألحق بك عند البار الإنكليزي. أعتقد أنه ما زال مفتوحاً.

قالت دون أن تهبني فرصة للاحتجاج:

- إني أفضل الصعود إليك؛ إنه أمر مستعجل.

كنت قد انتهيت للتو من إعادة ارتداء ملابسي مجدداً عند قرع الباب. قلت بأن الباب غير مغلق. فتحته وهي تحدق بي برهة. كان الممر يقبع في العتمة وقد استطعت أن أميز أنها فارعة الطول، وأنها تلف فولاراً على كتفيها. دلفت إلى الداخل وهي تغلق الباب خلفها، كنت أجلس على الأريكة يغمرني نور باهر. نهضت ولم أقل شيئاً، بل رحت أنتظر. تكلمت، تكلمت دون أن تتقدم خطوة واحدة إلى داخل الغرفة. كان صوتها كما عهدته على الهاتف، خافتاً وثابتاً.

- أرجو المعذرة لهذا الإزعاج. قد يبدو لك سلوكي مشيناً، ولكن من المؤسف حقاً أننا أحياناً لا نملك أن نفعل خلاف ذلك.

قلت:

- اسمعي، لقد سبق أن عرفت الهند كبلد غرائب، ولكن فك الطلاسم ليس صنعتي. حاولي تجنب جهود لا طائل منها.

حدجتني بنظرة مملوءة بالاستغراب والصلف، لكنها قالت بنبرة هادئة:

- إن الأمر بسيط للغاية، لقد نسيت في غرفتك أشياء تخصني وها أنذا أعود كي أستعيدها.

قلت:

- لقد خمنت أنك ولابد عائدة، ولكن بصراحة، لم أنتظر عودتك بهذه السرعة أو بالأحرى متأخرة بعض الشيء.

تمتمت وهي تنظر إليّ وقد تنامت دهشتها:

- ما الذي ترمي إليه؟

قلت:

- هل أنت لصّة؟

نظرت المرأة عبر النافذة ثم نزعت الفولار عن كتفيها. كانت جميلة. هكذا خيل إليّ، أو لعله انعكاس الضوء المنبعث عن عاكس النور هو الذي يضفي على وجهها مسحة أرستقراطية وسامية. لم تكن يافعة، ولكن جسمها كان مكتنزاً؛ قالت:

- إنك مفرط في الحدة.

مررت بيدها على وجهها كما لو كانت تطرد عنها تعباً ما، أو فكرة. سرت قشعريرة خفيفة في جسدها فارتجف كتفاها. تساءلت:

- ما الذي تعني السرقة؟

حل السكون بيننا وانتبهت إلى الصنبور وهو ينقط بشكل مثير للحنق. قلت:

- سبق لي أن هتفت لهم قبل العشاء، وقد أكدوا لي أنهم سوف يصلحونه. إنه صوت لا يطاق وأخشى أن يحرمني النوم.

ابتسمت. كانت تستند إلى خزانة الملابس المصنوعة من خشب الجونكو وقد تدلى ساعداها نحو ردفيها كما لو كانت متعبة. قالت:

- أعتقد أن عليك أن تتأقلم. لقد سبق لي أن أقمت هنا أسبوعاً كاملاً، وقد طلبت إليهم عشرات المرات أن يصلحوه، لكني أذعنت في النهاية.

صمتت قليلاً، ثم أردفت متسائلة:

- هل أنت فرنسي؟

أجبت:

- كلا.

حدجتني بانكسار قائلة:

- لقد جئت من مادوراي بالتكسي، وقد أنفقت كل يومي مسافرة. مسحت جبينها بالفولار كما لو كان منديلاً، وقد بدا أن شعوراً باليأس أخذ يعتريها، أو هذا ما خيل إليّ.

قالت:

- إن الهند مروعة، أما الطرقات فهي جحيم حقيقي.

قلت:

- إن مادوراي بعيدة جداً. كيف اتفق وجودك هناك؟

- كنت أهم بالذهاب إلى تريفاندروم، ومن هناك كنت سأؤمم شطر كولومبو.

قلت معترضاً:

- ولكن حتى مدراس هنالك طائرة تسافر إلى كولومبو!

قالت:

- لم أكن راغبة بذلك، ولدي أسبابي. ولن يكون من العسير عليك استنتاجها. على كل حال، غادرت الآن.

كانت ترمقني بنظرة متسائلة. قلت:

- على أية حال، كل شيء هناك حيث تركته في مكانه في آخر درج إلى اليمين.

كان المكتب خلفها، مكتب من خشب البامبو وقد رُصّعت أطرافه بالنحاس، وازدان بمرآة واسعة انعكست عليها صورة كتفيها العاريين. فتحت الدرج وأخرجت حزمة الأوراق، ولقد لفقتها بمغلف بلاستيكي.

قالت:

- إن هذه هي الحماقة بعينها. كيف يتأتى لامرئ أن يأتي شيئاً من هذا القبيل ثم يتركه منسياً في أحد الأدراج. لقد حفظته لمدة أسبوع في خزانة الفندق الحديدية، ثم غفلت عنه تاركة إياه هنا بينما كنت أعد حقائبي وأغادر.

رمتني بنظرة، كأنها تود ملاحظة وقع كلماتها عليّ. قلت:

- في الواقع، إن هذه حماقة حقيقية. إن نقل كل هذه المبالغ هي عملية نصب رفيعة المستوى. ثم لا تلبثين أن تقترفي سهواً كبيراً كهذا.

قالت:

- من الجائز أني كنت مضطربة جداً.

أضفت:

- أو لعلك كنت مأخوذة بلذة الانتقام. لقد كانت رسالتك واضحة جداً. إنه انتقام عنيف، وهو لن يقدر أن يأتي بشيء البتة.

- إذاً فقد قرأت رسالتي؟!

قلت:

- وقد نسخت جانباً منها أيضاً.

فاضت عيناها بالدهشة، أو لعله الخوف، وتمتمت:

- نسخت! لماذا؟

أجبت:

- القسم الأخير فقط. أنا آسف لذلك. كنت أشعر بأني مضطر لفعل شيء كهذا. على كل، أنا لا أعرف حتى إلى من هي مرسلة. لقد استطعت أن أدرك فقط أنه رجل. وقد سبب لك -ولا بد- ألماً مُمضاً.

قالت:

- لقد كان غنياً جداً، مأخوذاً بقناعة مفادها أنه قادر على شراء كل شيء بالمال، حتى الأشخاص.

ندت عنها حركة مضطربة وهي تشير إلى نفسها، واستطعت عندئذ أن أفهم كل شيء.

- أعتقد أني أفهم الأمور على نحو غامض جداً. أنت لم توجدي قط. لقد عشت لسنوات خلت تحت اسم مستعار، حتى جاء يوم قررت فيه أن تضفي الحقيقة على هذا الاسم. من جهتي، أنا لا أعلم عنك سوى اسمك، وهو اسم شائع جداً وليست لدي النية لمعرفة المزيد.

قالت:

- هذا حق، فالعالم مملوء بمن يدعين مارغريت.

نهضت عن المكتب ثم توجهت صوب كرسي مرآة الزينة وجلست. أسندت مرفقيها إلى ركبتيها وهي تدس وجهها بين كتفيها. ظلت هكذا برهة من الزمن مغطية وجهها دون أن تنبس ببنت شفة.

تساءلت:

- ما الذي تنوين فعله؟!

ردت:

- لست أدري. أشعر بخوف شديد. يجب أن ألحق بذلك البنك غداً في كولومبو، وإلا ذهبت كل هذه النقود هباءً.

قلت:

- اسمعي إليّ قليلاً. لقد كاد الليل أن ينقضي، ولن تتمكني من الذهاب إلى تريفاندروم في هذه الساعة. في كل الأحوال لن تلحقي طائرة الغد هناك، ولكن في الصباح الباكر هناك طائرة تقلع من هنا باتجاه كولومبو. أعتقد أنك سوف تكونين محظوظة إن وجدت فيها مقعداً، فيما لو وصلت في الوقت المناسب. ثم إنك من المفترض أن تكوني قد غادرت هذا الفندق.

أخذت تنظر إليّ وكأنها لا تفقه أي شيء. تأملتني طويلاً، بعمق، ثم ندت عنها ابتسامة وهي تتساءل:

- ولماذا تفعل كل هذا؟

أجبت:

- لست أدري. يحتمل أن الهاربين يروقون لي. ثم حتى أنا كنت قد سرقت شيئاً منك.

قال:

- لقد تركت حقيبتي عند المدخل.

- أعتقد أن من الحكمة تركها في مكانها، ولسوف تستردينها صباح غدٍ. أستطيع إعارتك بيجاما؛ إن مقاسنا واحد.

ضحكت قائلة:

- بقيت مشكلة الصنبور.

وضحكت أنا أيضاً:

- على كل حال، لقد اعتدت أنتِ على هذا. بقيت مشكلتي أنا فقط.

[6]

قال:

- لا يمكن للأجساد الإنسانية إلا أن تكون مظهراً. إنها تقبض على حقيقتنا، تطغى على نورنا وعلى ظلمتنا.

رفع يده وهو يومئ بإشارة غامضة. كان يرتدي جبة بيضاء فضفاضة، وقد جعلت كمها ينزاح حول المعصم الناحل.

- آه. ولكن هذه ليست الثيوصوفية التي يقول بها فكتور هوجو «مسافر والبحر».

ابتسم، صب لي مشروباً، ثم رفع كأسَه المملوءة بالماء كما لو كان يشرب نخباً ما. رفعت الكأس أنا أيضاً، ثم فكرت: في صحة ماذا؟ قلت:

- في صحة النور والظلمة.

عاد يبتسم ابتسامته قائلاً:

- فلتعتذر لي من هذا العشاء المفرط في التقشف. إنها الطريقة الوحيدة التي تفسح لنا المجال كي نتحاور بهدوء، بعد تلك الزيارة التي قمت بها عصراً. إني متأسف جداً لأن مشاغلي لم تتح لي استقبالك منذ البداية بيسر.

قلت:

- هذه بحق هبة، إنك كريم جداً. لم أكن أجرؤ على أن آمل أكثر من هذا.

تابع بنبرة عصية على التفسير:

- من النادر أن نستقبل في هذا المركز زواراً أجانب، ولكن أخالني حدست بأنك لست مجرد زائر يحدوه الفضول.

تنبهت إلى أن طاقتي كانت مثيرة للتساؤل بعض الشيء. الهواتف التي أجريتها، وزيارتي بعد الظهر والتي ألمحت فيها إلى شخص مفقود وحسب. لم يكن ممكناً لهم الاستجابة لمجرد

إشارات رمزية غامضة. لقد كان ضرورياً أن أبين مقاصدي بوضوح أكبر، بدقة أكبر. ولكن ما الذي كنت أستطيع أن أسأل عنه في المحطة النهائية وأنا لا أملك سوى معلومات بائدة؟ أثر مفترض، خيط يمكن له أن يوصلني إلى كزافيير.

قلت:

- إني أبحث عن شخص يدعى كزافيير جاناتا بينتو، اختفى منذ حوالي سنة، وقد تناهت إليّ آخر أخباره في بومباي، ولدي من الأسباب الكافية التي تحملني على الاعتقاد بأنه كان على صلة مع الجمعية الثيوصوفية، وهذا هو مبرر وجودي هنا.

تساءل مضيفي:

- هل يعتبر نوعاً من التطفل سؤالك عن الدوافع التي تحدوك إلى قناعة من هذا القبيل؟!

دخل الخادم حاملاً صينية. صب كل منا في كأسه مقتصداً. فيما يخصني كانت مسألة احتشام. فيما يخصه، من الجائز، مسألة تعوُّد:

- أريد أن أعرف ما إذا كان عضواً في الجمعية الثيوصوفية!

نظر مضيفي إليّ بحدة ثم أكد بشكل قاطع:

- كلا، لم يكن.

قلت:

- ولكنه كان يتبادل الرسائل معكم!

رد:

- هذا جائز. ولكن في حالة كهذه سيكون الأمر مجرد مراسلات شخصية ومحدودة النطاق.

انهمك يمضغ قطعاً من النبات مصحوباً بأرز لا نكهة له. كان النادل ينتظر في ركن مجاور، حاملاً صينية في يده، وبإشارة من مضيفي اختفى برزانة.

قال موضحاً:

- لدينا أرشيف، ولكنه مقتصر على الأعضاء وحسب. في كل الأحوال إنه لا يتضمن مراسلات شخصية.

تناهيت في الصمت، ذلك لأني تنبهت إلى أنه كان يدير الحوار حسب هواه، لذا لم يكن ثمة طائل من الاستمرار بمطالب مباشرة وجلية للغاية.

سألني بعد برهة:

- هل تعرف الهند؟

أجبت:

- كلا. إنها المرة الأولى التي أجئ فيها إلى هنا، ولم أستوضح بعد بجلاء أين عساي أكون.

قال موضحاً:

- إني لا أعني الجغرافيا، إنما أعني الثقافة. أي كتب قرأت؟!

أجبت:

- النزر اليسير. إني أقرأ الآن كتاباً يدعى [دليل لازم من أجل رحلة طارئة]، أخاله مفيداً بعض الشيء.

رد ببرود:

- هذا ممل؛ هل ثمة شيء آخر؟

أجبت:

- آه. بعض الأشياء. ولكني لا أكاد أذكرها تماماً. أعترف بأني جئت دون أن أستعد لذلك جيداً. الشيء الوحيد الذي هو كتاب شليغل، وقد عنون كتابه بـ [حول اللغة والحكمة لدى الهنود].

أطرق قليلاً، ثم قال:

- يجب أن يكون كتاباً قديماً.

قلت:

- نعم. كُتب سنة 1808.

- لقد كانت ثقافتنا تجتذب الألمان دوماً، وكان لهم بعض الآراء الهامة. ألا تعتقد ذلك؟

قلت:

- هذا جائز. لست أهلاً لتأكيد ذلك بثقة مطلقة.

- فيما يتعلق بـ «هسه» ما الذي تعتقده؟
قلت:
- كان «هسه» سويسرياً.
رد مضيفي مؤكداً:
- كلا؛ كلا؛ لقد كان ألمانياً حصل على الجنسية السويسرية عام 1921.
رددت بإلحاح:
- ولكن مات سويسراً على أية حال.
قال مضيفي، وكانت نبرته لطيفة، لكنها انطوت على التأنيب:
- ولكن لم تقل لي حتى الآن ما الذي تظن فيما يتعلق بـ «هسه».
كانت المرة الأولى التي أحس فيها بالسخط. هذه الصالة الثقيلة الداكنة المغلقة، تماثيل البرونز النصفية المرصوفة على طول الجدران، الخزائن المكتظة بالكتب، هذا الهندي المتعالي والصلف، والذي كان يقود الحوار كما يحلو له، طريقته في وضع نفسه بين المطواع والخبيث، كنت أحس هذا جيداً. لقد جئت لأسباب مختلفة جداً وقد أغفلها ببراعة وعدم اكتراث لحالة القلق التي كانت تعتريني، والتي لا بد أنه أحس بها من خلال الهواتف التي أجريتها، وبطاقتي. وها هو ذا يلقي عليّ أسئلة بلهاء حول «هرمان هسه». أحس بنفسي مخدوعاً.
سألته:
- هل تعرف الروزوليو؟ هل سبق لك أن تذوقته؟
رد:
- لا أعتقد. وما عساه يكون؟!
- إنه المشروب إيطالي نادر الآن. كان يشرب مراراً في الصالات البرجوازية في القرن الثامن عشر. هو شراب حلو المذاق ودبق، يذكرني بهرمان هسه دائماً. عندما أعود إلى إيطاليا سوف أرسل لك زجاجة منه؛ أفترض أن من الممكن العثور عليه.
كان ينظر إليّ دون أن يفهم ما إذا كان هذا نوعاً من السذاجة أم الوقاحة. بالطبع كانت وقاحة، ذلك أني لم أكن أفكر هكذا بـ«هسه».
قال بجفاء:

- لا أعتقد أنه سوف يعجبني. أنا هندوسي ولا أتعاطى الكحول، ثم إني لا أحب الأشياء الحلوة.

ثم ثنى طاولته قائلاً:

- هل ترغب بتناول الشاي؟

انتقلنا إلى الكنبة بجانب المكتبة، فدلف الخادم حاملاً صينية كما لو كان ينظر خلف الستارة. وهو يصب لي الشاي في الكأس:

- مع السكر؟

أجبت:

- كلا، شكراً. أنا أيضاً لا أحب الأشياء الحلوة.

أعقب هذا صمت طويل ومربك. كادت عينا مضيفي أن تكونا مغلقتين، ثابتتين. خلت للحظة أنه استغرق في النوم. جهدت في تقدير سنه دون أن أنجح. كان وجهه كهلاً، لكنه جد ناعم. وتنبهت إلى أنه كان ينتعل صندلاً مصنوعاً من الخيط في قدميه العاريتين.

باغتني بالسؤال ولما تزل عيناه مغمضتين:

- هل أنت غنوصي؟

قلت:

- لا أعتقد ذلك.

ثم سرعان ما أضفت:

- لا، لست كذلك، إنما لدي بعض الفضول.

فتح عينيه. كان ينظر إليّ بشزر، وربما بسخرية:

- وإلى أي حد وصل فضولك؟

قلت:

- سويدنبرغ، شيلبخ، آني بيزانت، نتف من كل شيء.

بدا الاهتمام عليه، فأوضحت:

- وصلت إلى الغرفة عبر طرق غير مباشرة. مثلاً آني بيزانت. لقد ترجم لها فرناندو بسوا. إنه شاعر برتغالي كبير، وقد مات مجهولاً في منتصف الثلاثينيات.

قال:

- بسوا. آه، بالطبع.

تساءلت:

- هل تعرفه؟

رد:

- قليلاً. مثلك عبر الآخرين.

قلت:

- لقد كان غنوصياً متخصصاً. كان من الصليب الأحمر وقد كتب سلسلة من القصائد الغامضة بعنوان (Passos da Cruz).

رد مضيفي:

- لم يسبق لي أن قرأتها، ولكني أعرف بعض الأشياء عن حياته.

- هل تعرف ماذا كانت كلماته الأخيرة؟

رد:

- كلا. وماذا كانت؟

قلت:

- أعطوني نظارتي. كان كليل البصر وقد رغب في دخول العالم الآخر حاملاً نظارتيه.

ابتسم مضيفي دون أن يأتي بأي تعليق.

كان قد خطّ باللغة الإنكليزية قبل ذلك بدقائق. كان يسجل دوماً ملاحظاته الخاصة باللغة الإنكليزية. لقد كانت لغته الثانية، ذلك أنه ولد في جنوب أفريقيا، وقد تسنى لي أن أنسخ هذه البطاقة. لم تكن الكتابة جلية، هذا طبيعي، ذلك أن بسوا كان يغالب سكرات الموت. ولكن من الممكن تهجيتها. هل تريد أن أردد على مسامعك ما الذي كتبه؟

كان مضيفي متدلي الرأس، تماماً كما يفعل الهنود عادة عندما يجتاحهم السأم.

- أنا أعرف ما الذي يحمله الغد.

قال:

- كم هي غريبة هذه الإنكليزية!

رددت:

- هذا حق. كم هي غريبة!

نهض مضيفي متثاقلاً. أشار إليّ أن أظل جالساً. عبر الغرفة، قال وهو يخرج من باب يقع في أعماق الغرفة:

- أرجو المعذرة، سأعود بعد هنيهة، أرجو أن تأخذ راحتك.

ظللت ثاوياً أحدق في السقف، وكان الوقت ولا شك متأخراً جداً. ساعتي معطلة. على حين بدا يخيم سكون مطبق، خيل إليّ أني أسمع دقات ساعة في غرفة أخرى. لكن من المحتمل أنها طقطقة خشب وحسب أو أن هذا محض تصور.

دلف الخادم إلى الغرفة دون أن ينطق بحرف وتناول صينية. بدأت أحس ببعض النفور، نفور اختلط بالإجهاد فولّد إحساساً داخلياً بالضيق أو عدم الراحة. أخيراً، عاد مضيفي وقبل أن يجلس قدم إليّ مغلفاً أصفر اللون وقد تعرفت على الفور على خط كزافيير. فتحت المغلف وقرأت هذه البطاقة:

[عزيزي المعلم والصديق. لم تعد ظروف حياتي تسمح لي بالتنزه على شواطئ (Adyar). لقد عضني فار ليلي وأفضل أن أعتقد بأن هذا هو ما ارتضاه القدر لي. اذكرني كما سبق أن عرفتني دوماً.

المخلص لك.

كانت مؤرخة في 9 سبتمبر، كالنجوت، جوا].

حملقت في مضيفي وقد تملكتني الدهشة. كان جالساً يتفحصني بفضول، أو هذا ما خيل إليّ. قلت:

- إذاً فهو لم يعد في بومباي، إنه في جوا. لقد كان في جوا حوالي نهاية سبتمبر.

أومأ برأسه دون أن يهمس ببنت شفة، فتساءلت:

- ولكن لماذا ذهب إلى جوا؟ إن كنت تعلم أي شيء أخبرني به.

أسدل كفيه فوق ركبتيه، وراح يحدثني بنبرة صارمة. قال:

- لست أدري. لا أعلم أي شيء عن الحياة الفعلية لصديقك. يؤسفني أني لا أستطيع مساعدتك. من الجائز أن حياته لم تكن يسيرة ولا وادعة. أو ربما هو نفسه رغب بذلك. لا يجب أن نقصر بإفراط معرفتنا بالحياة الظاهرة للآخرين.

رسم ابتسامة خفرة، ثم أشار بأنه لم يعد يملك أي شيء آخر ليقوله لي فيما يتعلق بالموضوع. تساءل مختتماً:

- هل ستمكث طويلاً في مادراس؟

قلت:

- كلا. لقد أمضيت فيها ثلاثة أيام. سوف أغادر الليلة. لقد حجزت بطاقة الأوتوبيس من أجل رحلة طويلة.

خيل إليّ أني أكاد ألمح في عينيه علامات استنكار وعدم تصديق، وشعرت بحاجة لأن أعطي تفسيراً أوضح.

- هذا هو هدف رحلتي؛ سوف أذهب كي أنقّب في أرشيف قديم في جوا. عليّ أن أحضر بحثاً عن ذلك. وكنت سأذهب هناك حتى لو كان الشخص الذي أبحث عنه موجوداً في مكان آخر.

تساءل:

- أي الأماكن زرتها هنا؟

أجبت:

- لقد زرت ماهابالي بورام وكنجي بورام. زرت كل المعابد.

- هل نمت هناك؟

- أجل في فندق حكومي صغير. إنه رخيص جداً. هذا ما تسنى لي إيجاده.

قال:

- إني أعرفه.

ثم تساءل:

- أي شيء نال إعجابك أكثر؟

- أشياء كثيرة. لكن من الجائز أنه معبد كايلاساناتا. إنه له طابعاً مؤلماً وسحرياً.

قال وهو يهز رأسه:

- إنه وصف غريب.

ثم نهض بتؤدة متمتماً:

- أعتقد أن الوقت متأخر جداً. يجب عليّ أن أنجز الكثير من الكتابة الليلية. اسمح لي أن أرافقك.

نهضت وتقدمي عبر الممر حتى باب المدخل، وبينما كنت أغادر، شكرته باقتضاب. ابتسم ولم يجب، ثم قال لي قبل أن يغلق الباب:

- عبثاً يحرث العلم الأعمى التراب. يحيا الإيمان الجنوني حلم عبادته. الإله الجديد ليس سوى كلمة لا تؤمن ولا تبحث. كل شيء مستور.

هبطت الأدراج القلائل. جزت بضع خطوات على الحصباء ثم حدث أن استدرت نحو الخلف. لقد كانت مقاطع من قصيدة لـ«بسوا». لم أكن لأتعرف عليها للوهلة الأولى، لأنه قالها لي بالإنكليزية. إنها عن قصيدة تدعى «الميلاد»، ولكن الباب كان قد أوصد، وكان الخادم يقف عند رأس الممر منتظراً أن أخرج كيما يغلق البوابة خلفي.

[7]

كانت الحافلة تعبر أرجاء متصحرة. ثمة قليل من القرى الغافية. قطعنا أشواطاً بعيدة، وراح السائق يتجاوز منحنيات حادة جداً وهو يبدي بعض المهارات التي بدت لي مفرطة في المغالاة. لكنا ما لبثنا أن أخذنا نسير على طريق مستقيمة، رحبة. في هذه الليلة الهندية الصامتة، خلت أننا نخترق بلدة فيها نخل وكروم. لكني لم أكن متيقناً من ذلك، حيث غدا الظلام أكثر حلكة، وأنوار المصابيح تجتاز القرى مسرعة عند المنحنيات.

أجريت بعض الحسابات التي أظهرت لي أن مانغولار لن تكون بعيدة فيما لو وُفِّقت الحافلة إلى قطع المسافة بالزمن المقرر لها نفسه ابتداءً من وقت انطلاقها. في مانغولار ثمة خياران، فإما انتظار سبع ساعات للحافلة التي سوف تمر في طريقها إلى جوا، أو قضاء اليوم في الفندق وانتظار الحافلة التي ستغادر في اليوم التالي.

لم يكن رأيي قد استقر على خيار محدد، وقد غفوت برهة أثناء السفر. كان نومي مضطرباً. يقول دليلي عن هذه المدينة، إنها تقع على بحر عمان، وإن المدينة لم تعد تحتفظ بشيء يذكر عن ماضيها. إنها مدينة صناعية حديثة، طراز العمارة فيها معاصر ومألوف، بل وتبدو الأبنية فيها متشابهة. إنها إحدى المدن القلائل في الهند التي لم يكن ثمة الكثير مما يستحق المشاهدة فيها...

كنت ما أزال أقيم الافتراضات حول القرار الذي يمكنني اختياره عندما توقفت الحافلة بغتة. لا يمكن أن تكون هذه مانغولار! ذلك أن الأفق خالٍ هنا.

أوقف السائق الحافلة ونزل المسافرون. في البداية ظننت أنها مجرد استراحة قصيرة تهيئ للمسافرين قضاء حاجاتهم أو إمكانية ذلك. ولكن بعد خمس عشرة دقيقة بدا وكأن الاستراحة استطالت أكثر مما يجب. ثم إن السائق بدا وكأنه قد استند إلى ظهر الكرسي وغط في النوم. انتظرت ربع ساعة أخرى. كان المسافرون ساكنين يغطون في النوم. وثمة عجوز يجلس أمامي مرتدياً عمامة، وقد تناول عصابة من الخيوط الصوفية وراح يلفها بأناة وصبر وهو يعدل كل التواء في الخيط. همست بسؤال في أذنه. التفت نحوي راسماً

ابتسامة خالية من أي معنى، حتى أني خلته لم يعِ ما قلت له. حدقت نحو الخارج عبر النافذة الصغيرة فرأيت عند حافة الطريق ما يشبه كشكاً كبيراً وقد انبعث منه نور خافت، كان يبدو وكأنه كراج مصنوع من الألواح الخشبية. عند الباب شاهدت امرأة، وقد راح الناس يدلفون نحو الداخل.

قررت أن أتبين جلية الأمر من السائق نفسه. ولكن كان يسوءني إيقاظه، فقد قاد الحافلة لساعات طويلة. ولكني كنت أعتقد بأن من الأفضل أن أحاط بالأمر علماً. كان رجلاً بديناً يغفو فاغراً شدقيه. لمست كتفه، فنظر نحوي وقد بدا تائهاً.

سألته:

- لماذا نقف هنا؟ هذه ليست مانغولار.

رفع رأسه نحو الأعلى وهو يمسح شعره بيده قائلاً:

- لا يا سيدي، إنها ليست مانغولار.

- إذاً، ففيم وقوفنا هنا!

رد:

- إنها محطة تبديل. نحن ننتظر حافلة أخرى.

لم يكن منوهاً في بطاقتي عن هذه الوقفة، ولكني الآن اعتدت على مفاجآت الهند، لذا لم أندهش حين علمت بهذا. كان الأمر مجرد فضول، وقد علمت أننا ننتظر حافلة موداير وكاركالا. حاولت أن أبدي تساؤلاً بدا في الظاهر منطقياً.

قلت:

- ولكن ألا يستطيع المسافرون الذاهبون إلى موداير وكاركالا أن ينتظروا وحيدين! وهل علينا أن نشاركهم هذا الانتظار؟

قال السائق بلهجة مطمئنة:

- على متن تلك الحافلة ثمة مسافرون متوجهون إلى مانغولار، وسوف يصعدون معنا، ولهذا فإننا ننتظرهم.

تمدد فوق المقعد مجدداً موحياً لي أنه سيعاود النوم. قلت له بنبرة مذعنة:

- كم من الوقت سنمكث هنا؟

أجاب:

- خمس وثمانون دقيقة.

لم أفهم جيداً ما إذا كانت دقته في تحديد الوقت بهذه الصورة تنم عن نوع من التأدب بريطاني الطابع، أم أنها تعبير عن سخرية مؤدبة. لكنه أردف:

- على كل حال، إذا كنت تعباً من الانتظار داخل الحافلة يمكنك النزول. هناك بالقرب منا توجد صالة انتظار.

قررت أن من الأفضل أن أحاول بعث النشاط في قدمي مغالباً سأم الانتظار. كانت ليلة حلوة ورطبة معبأة بعبق الأعشاب، درت دورة حول الحافلة، دخنت سيجارة وأنا أتكئ على الجانب الخلفي منه، ثم توجهت نحو صالة الانتظار. كانت عبارة عن كوخ واطئ طويل، وكان ثمة مصباح بترولي معلق على الباب، وفوق جذع شجرة وُضع تمثال من الجبس لإلهة كنت أجهل من تكون. في الداخل كان ثمة ما يقارب العشرة أشخاص جالسين على مقعد طويل ملتصق إلى الجدار. قرب المدخل وقفت امرأتان تثرثران. حفنة المسافرين الذين ترجلوا من حافلتنا كانت مبعثرة على طاولة في المنتصف، تحت عمود داعم ألصقت عليه بضع أوراق متعددة الألوان، وإعلان مصفر اللون قد يكون جدولاً للمواقيت أو إعلاناً حكومياً. في أعماق الكوخ كان ثمة طاولة جلس عليها فتى في العاشرة من عمره، مرتدياً سروالاً قصيراً، منتعلاً صندلاً، حاملاً فوق كتفه قرداً وقد أخفى وجهه في شعر صاحبه وهو يطوق عنقه بيدين متشابكتين وقد شابه مزيج من الخوف والمودة. باستثناء لمبة الغاز المعلقة أعلى الباب، كان ثمة شمعتان ركنتا فوق صندوق، وكان النور خافتاً.

لبثت عدة دقائق أحدق في هؤلاء الناس. لم يبدو أنهم فطنوا لوجودي بعد. استأثر منظر هذا الفتى وقرده باهتمامي، وأحببت طريقته في احتضان دميته قبل أن يخلد إلى النوم. يحتمل أن سيل الخواطر هذا هو الذي دفعني باتجاه ذلك الفتى. جلست قربه، نظر نحوي بعينين جميلتين ثم ابتسم، بادلته الابتسامة بدوري، عندئذ تنبهت وقد اعتراني بعض الارتباك إلى أن هذا الكائن المحمول على الكتفين لم يكن قرداً. كان مخلوقاً آدمياً مشوه الخلقة، مسخاً، شناعة الطبيعة أو عاهة مرعبة. كان جسمه منكمشاً وقد التوت

أشكاله وأبعاده. التوت أوصاله وتبدلت معالمها وكأنما اعتمدت في تشكيله مقاييس وأنظمة «غروتية» شنيعة. حتى الوجه البارز من خلال شعر صاحبه لم يكن قد نجا من هذا التشويه الكامل. الأدمة خشنة والتجاعيد عميقة مثل الجروح. كل هذا كان يضفي عليه ذلك المنظر القردي، والذي بالإضافة إلى قسماته، خلق في داخلي حالة الالتباس تلك.

العينان فحسب، في ذلك الوجه، كانتا إنسانيتين. عينان صغيرتان، حادتان تطفران ذكاءً متوثبتان بجزع من كل الاتجاهات كأنما مسهما خطر داهم أو أربدهما الخوف. حياني الفتى بمهارة. بادلته التحية أنا أيضاً. لم أكن قادراً على النهوض أو الانصراف مبتعداً. سألته:

- أين تذهب؟

رد مبتسماً:

- إلى موداييري حيث معبد شاندرنان.

كان ينطق بإنكليزية رصينة دون أية عثرات. قلت:

- إنك تتكلم الإنكليزية جيداً؛ من علمك إياها؟

رد الفتى صلفاً:

- تعلمتها في المدرسة. ارتادها ثلاث سنوات.

صدرت عنه ارتعاشة خفيفة وهو يستدير برأسه وقد ارتسمت علائم الاعتذار على سيمائه، قال:

- إنه لا يتقن الإنكليزية؛ لم يتسن له الذهاب إلى المدرسة أبداً.

قلت:

- بالتأكيد إني أتفهم الوضع.

داعب الفتى هاتين اليدين اللتين كانتا تضغطان على صدره. ثم قال بنبرة ملؤها الود:

- إنه أخي، عمره عشرون سنة.

ثم ما لبث أن عاودته مسحة الفخر فأردف:

- لكنه يعرف القراءة. إنه يحفظها عن ظهر قلب. إنه ذكي جداً.

كنت أحاول التشبث بموقف غير عابئ، كما لو كنت زائغ الذهن أو غارقاً في التفكير وأنا أغالب بذلك عجزي عن النظر إلى ذلك المخلوق. تساءلت:

- ماذا ستفعلان في مودابيري؟

رد:

- هناك أعياد. سوف يأتي الجانيشيون من سائر أرجاء كيرالا. هناك الكثير من الحجاج في هذه الأيام.

- وهل أنتما من الحجاج؟!

رد:

- لا، نحن نجوب المعابد. إن أخي هو «أرهانت».

قلت:

- المعذرة، ولكني لا أدري ما يعني ذلك.

شرح الفتى دون أن يفقد صبره:

- «أرهانت هونبي جاينو». إنه يقرأ كارما الحجاج. إننا نكسب الكثير من النقود من جراء ذلك.

- هو إذاً عراف!

قال الفتى بسذاجة:

- أجل، إنه يقرأ الماضي والمستقبل.

أطرق قليلاً كأنه كان يجمع أفكاره مثل أي مهني ماهر، ومن ثم سألني:

- هل تريد معرفة كارماك؟ إن الأمر يحتاج إلى خمس روبيات وحسب.

قلت:

- طبعاً، اسأل أخاك.

حدث الفتى أخاه بلهجة ملؤها الود، فأجابه ذاك هامساً وهو يرمقني بنظرات متوثبة، ثم توجه الفتى بالكلام نحوي قائلاً:

- يسأل أخي ما إذا كان بإمكانه لمس جبينك؟

أومأ الفتى برأسه وهو ينظر. قلت:

- بالتأكيد، إن كان هذا ضرورياً.

مد العراف يده القصيرة ثم ضغط بسبابته فوق جبيني. لبث كذلك برهة مثبتاً إياي بشدة ثم همس بضع كلمات في أذن أخيه. تبع ذلك محاورة مضطربة، كان العراف يتحدث خلالها باقتضاب وقد بدا مغتاظاً وهائجاً. وما إن انتهى جدالهما حتى التفت الفتى نحوي وكانت نظراته حزينة.

تساءلت:

- إذاً! هل أستطيع أن أعرف شيئاً مما يجري؟

قال:

- أشعر بالأسف الشديد. إن أخي يقول إن هذا غير ممكن. إنك شخص آخر.

قلت:

- آه.. حسناً، فمن عساي أكون؟

عاد الفتى يحادث أخاه، وراح هذا الأخير يجيبه مقتصداً. قال مشيراً إلى الأخ:

- إن هذا غير هام، إنه "مايا" وحسب.

- وما هي المايا؟

- إنها ظاهرة العالم، لكنها خداع محض. إن المهم هو "الأتْما".

ثم عاد يستشير أخاه، ثم يؤكد لي قناعته مجدداً:

- إن "الأتْما" هي الشيء المهم.

- وما عساها تكون هذه الأتْما؟

- رد الفتى وهو يبتسم من جهلي:

- إنها الروح، الروح الفردية.

دخلت امرأة وجلست بإزائنا. كانت تحمل سلة وطفلاً نائماً. نظرت نحوها فأومأت واضعة يدها أمام وجهها مشيرة باحترام. قلت:

- كنت أعتقد أنه في داخلنا يوجد الـ«كارما» وحسب. إنها خلاصة أفعالنا، ذاك الفتى كناه وما سوف نكون.

ابتسم الفتى مجدداً ثم حادث أخاه. راح الممسوخ يحدجني بعينين ثاقبتين وهو يشير لي بإصبعه إلى الرقم اثنين. عاد الفتى يقول موضحاً:

- آه، كلا. هناك "الأتْما" أيضاً، إنها مع "الكارما"، إنه مقدر ومحتّم.

- إذاً، طالما أني شخص آخر، أرغب في أن أعرف أين عسى "أتْماي" يكون الآن؟

نقل الفتى ما قلته لأخيه. أعقب ذلك حوار مقتضب ثم عاد يقول لي:

- من الصعب جداً القطع بذلك، إنه لا يقدر عليه.

قلت:

- حاول أن تستوضح منه ما إذا كانت عشر روبيات تساعد على ذلك؟

قال الفتى له ذلك، فعاد يثبتني بعينين صغيرتين ثم تلفظ ببضعة كلمات محدثاً إياه على عجل.

أخذ الفتى يترجم ما قاله:

- إنه يقول إنها ليست قضية روبيات، إنك غير موجود، وهو لا يقدر أن يقول أين عساك تكون.

رسم ابتسامة حلوة، ثم أردف:

- ولكنك إن رغبت في وهبنا عشر روبيات فإننا نقبلها.

قلت:

- سوف أعطيك إياها بالطبع، ولكن اسأله -على الأقل- من أكون الآن؟!

عاد الفتى يرسم ابتسامة رؤوفة وهو يقول:

- ولكن هذا ليس سوى "مايا"، ما الذي ستجنيه من معرفة ذلك؟

قلت:

- بالتأكيد أنك على حق. لن يفيد هذا في شيء البتة.

ثم خطرت لي فكرة، فقلت:

- قل له أن يحاول التخمين، أن يحزر ذلك.

حدق الفتى في دهشة ثم قال:

- أن يحزر ماذا؟

قلت:

- أن يحزر أين عسى "أتْماي" تكون. ألم تقل إنه عراف؟

نقل الفتى اقتراحي، فأجابه الأخ باقتضاب، فقال:

- يقول إنه سوف يحاول، ولكنه لا يضمن أي شيء.

- إن هذا غير مهم، فليحاول وحسب.

ثبتني الفتى بشدة. أطال في ذلك، ثم أشار بيده. انتظرت أن يتكلم فلم يفعل. كانت أصابعه تتحرك في الهواء وهي ترسم أمواجاً. ثم ما لبث أن ضم كفيه كما لو كان يهم بجمع الماء الذي تخيل. تمتم ببضع كلمات، فهمس الفتى لي بدوره:

- يقول إنك فوق مركب.

أشار المسخ بكفيه نحو الأمام، ثم جمد في مكانه.

قلت:

- في مركب؟ اسأله أين؛ هيا أسرع، أي مركب هذا؟

ألصق الفتى فمه في أذن أخيه هامساً، ثم قال:

- إنه يرى أنواراً كثيرة، إنه لا يرى أكثر من ذلك. لا طائل من المحاولة.

عاد المسخ إلى حاله القديم دافناً وجهه في شعر أخيه. تناول الروبيات العشر وخبأها. خرجت في الليل؛ أشعلت سيجارة؛ لبثت أنظر إلى السماء والحفيف القائم للنباتات المنبتة على قارعة الطريق. الآن، لا أظن أن باص "موداييري" ما زال بعيداً.

الفصل الثالث

[8]

كان الحارس ذا وجه متغضن، لكنه محبب، عليه أكوام من شعيرات ناصعة البياض تتمايز عن جلد زيتوني اللون. كان يتكلم البرتغالية بطلاقة، وما إن لفظت اسمي حتى ابتسم ابتسامة عريضة وهو يدلي برأسه كما لو كان قد سُر لرؤيتي. أوضح لي بأن السيد بريوري مشغول بإنجاز واجباته المسائية، وأنه يرجو مني انتظاره في مكتبه. ناولني بطاقة كتب عليها: "أهلاً في جوا، سوف ألحق بك في المكتبة حوالي الثامنة والنصف، إن احتجت لأي شيء، ستجد تيوتونيو في خدمتك. الأب بيمنتال."

قادني تيوتونيو عبر السلالم وهو يهذر. كان ثرثاراً، لكنه لبق. وقد قضى شطراً طويلاً من حياته في البرتغال في «فيلا دوكوندي»، وقال إنه في ذلك المكان، حيث يعيش أقارب له، كان معجباً بالحلويات البرتغالية، خصوصاً الـ«pao de lo».

كانت السلالم مصنوعة من خشب غامق اللون، تقود نحو الأعلى مفضية إلى حيث يقع رواق مضاء بنور خافت، وقد وضعت فيه طاولة طويلة، وخارطة للعالم على الجدران. وثمة لوحات تتضمن أشكالاً طبيعية الحجم لرجال ملتحين، وقد أسدل الزمان على وجوههم ستراً مظلماً. تركني تيوتونيو عند باب المكتبة، ثم عاد يهبط السلالم كما لو كان ينتظره الكثير من العمل. الصالة واسعة ومنعشة، لكن رائحة الانغلاق ما تنفك تنبعث منها. كانت رفوف المكتبة مزدانة بتعقيدات باروكية مطعمة بالعاج، وقد بدت لي في أسوأ حال. ثمة طاولتان في الوسط، لهما أرجل معوجة، وبعض الطاولات الصغيرة الواطئة بإزاء الجدار، ثم بعض المقاعد الكنائسية، وأرائك عتيقة من القش. ألقيت نظرة نحو الرف الأول إلى اليمين، فلمحت بعضاً من كتب تاريخ أعمال الرسل، ثم كتباً من مؤلفات القرن السادس عشر حول أصحاب يسوع. تناولت كتابين دونما تحديد، ثم جلست على الأريكة الملاصقة لباب المدخل. على الطاولة كان ثمة كتاب مفتوح، لكني لم أدقق النظر فيه. فتحت واحداً من الكتابين اللذين تناولتهما، وقرأت: [كان عمانوئيل جودينهو يحمل

رؤية براغماتية للعالم. لم يكن هذا ملائماً قط لصنعته كحارس للإيمان الكاثوليكي، وهو يقوم بعمله التغييري الكبرى هذا في ذلك الجزء من العالم، محاصراً بمجمع الهندوس. كانت رواياته دقيقة ومفصلة، خالية من أية روح احتفالية، أو نزعة بلاغية. لم يكن يحبذ اللجوء إلى الرموز ولا إلى استخدام المجاز. كانت رؤية ذلك القس استراتيجية، وكان يقسم العالم إلى مناطق مهيأة وأخرى غير مهيأة، ويرى في الغرب المسيحي قلب العالم].

كنت قد وصلت إلى نهاية الاستهلال المقدم إلى الملك عندما شعرت -ولست أدري ما مدعاة ذلك- بأني قد لا أكون وحيداً في الغرفة. ربما سمعت قرقعة خفيفة، أو صوت أنفاس متصاعدة. بالأحرى، وفي أغلب الاحتمالات، كنت أحس ذلك الإحساس الذي ينتابنا عندما نشعر بأن هناك أنظاراً مصوبة نحونا. رفعت عيني، وتفحصت المكان. فوق إحدى الأرائك، بين النافذتين، وفي الجانب الآخر للصالة، لمحت تلك الكتلة المعتمة. كانت قد بدت لي لما دخلت الغرفة وكأنها ثياب ملقاة بإهمال على ظهر الكرسي. استدار ببطء، تماماً كما لو كان ينتظر تلك اللحظة، لحظة رؤيتي له، ثم حدجني بنظرة ثاقبة. كان رجلاً عجوزاً، ذا وجه متطاول، حفرت فيه أخاديد، وقد غطى رأسه بقبعة لم أكن لأميز طرازها بوضوح. همس:

- أهلاً بك في جوا، لقد كان قدومك إلى مادراس عملاً متهوراً، ذلك أن الطريق مملوءة باللصوص.

كان صوته أجش، يشبه القرقرة. نظرت إليه دهشاً، بدا لي أمراً فريداً استخدامه لكلمة «لصوص»، والأدهى من ذلك معرفته بقدومي، أضاف:

- ثم تلك الليلة، في ذلك المكان المقفر، لم تكن -بالتأكيد- مريحة لك. إنك يافع ومقدام، ولكن في أحيان كثيرة يمكن لنا أن نخاف، ولا أعتقد أنك جندي ماهر لدرجة القدرة على قهر الجبن.

رمقني بنظرة حانية، ولست أدري لم اعتراني شعور كبير بالارتباك، وجعلني أحار جواباً، كيف استطاع أن يعرف طريق سفري؟ فكرت، من أعلمه بذلك؟ قال لي العجوز كما لو أنه قرأ أفكاري:

- لا تقلق. إن لدي الكثير من العيون.

لفظ جملته بلهجة أقرب إلى التهديد، فانبعث الفضول في داخلي. إحساس غريب! كنا نتحادث بالبرتغالية على ما أذكر. كلماته باردة ومطفأة، كما لو أن مسافة ميتة بينه وبين نبرته. لم كان يتحدث بهذه الطريقة؟ فكرت، من عساه يكون؟! كانت الغرفة الطويلة تقبع في الظل، على حين ثوى هو في الجانب الآخر منها، بعيداً عني. وكان ثمة طاولة تحجب جزءاً من جسمه عن رؤيتي. كل هذا، إضافة إلى عنصر المباغتة، لم يتح لي المجال كي أتفحص مظهره، لكني تنبهت إلى أنه كان يعتمر قبعة مثلثة الشكل، منسوجة من قماش رخو. اللحية طويلة ورمادية، تتهدل على صدر مغطى بصديرية مزركشة بخيوط فضية. الأكتاف ملفوفة بملاءة سوداء، فضفاضة، من طراز قديم، والأكمام منتفخة. قرأ علائم الاضطراب وهي بادية على وجهي. أزاح كرسيه، ثم وثب إلى وسط الغرفة برشاقة لم أكن أتوقعها منه. كان ينتعل أحذية فرسان طويلة، مقلوبة عند الفخذين، متغمداً سيفاً في خاصرته. صدرت عنه هذه الحركة المسرحية المضحكة بعض الشيء، راسماً بيده اليمنى شكلاً حلزونياً، معيداً إياه باتجاه القلب، ثم صرخ بصوت جهوري:

- أنا ألفونسو دي ألبوكرك، نائب ملك الهند.

فقط في هذه اللحظة أدركت أنه معتوه، فهمت ذلك، ولكني فكرت في الوقت نفسه، وبفضول كبير، بأنه هو بالفعل ألفونسو دي ألبوكرك. كل هذا لم يكن يثير دهشتي، وإنما عانيت وحسب شعوراً باللامبالاة ممزوجاً بالتعب، كما لو كان كل هذا ضرورياً، ولا يمكن تجنبه. راح العجوز ينظرني بحذر وتشكك. العينان لامعتان. كان طويلاً، ضخم الجثة، تعلوه سيماء التكبر والغطرسة، وقد خمنت بأنه كان ينتظر أن أبادله بالكلام. تكلمت، لكن الكلمات كانت تندفع من تلقاء نفسها، دون أن تتمكن إرادتي من إخضاعها ومراقبتها، قلت:

- إنك قريب الشبه من إيفان المرعب، أو بالأحرى من ذلك الممثل الذي قام بدوره.

صمت، ثم ألصق يده بأذنه.

فأوضحت:

- كنت أعني فيلماً قديماً خطر ببالي.

وبينما كنت أقول هذا، لمع وجهه، كما لو أن ناراً قد اشتعلت في موقد مجاور له. لم يكن ثمة أي موقد، ما زالت الغرفة تقبع في العتمة، بل ومن المحتمل، أن آخر شعاع ضوء كان في سبيله إلى الأفول.

صرخ مرة أخرى:

- ما الذي أتيت تفعله هنا؟ ما الذي تريده منا؟

أجبت:

- لا شيء، لا شيء البتة، جئت لأقوم بدراسة أرشيفية. إنها مهنتي، هذه المكتبة تكاد تكون مجهولة في الغرب، إني أبحث عن وقائع قديمة.

ألقى العجوز عباءته فوق أحد كتفيه، تماماً كما يفعل الممثلون على خشبة المسرح وهو يتهيأون للمبارزة ثم صرخ بحدة:

- إنها كذبة، لقد جئت من أجل هدف آخر.

لم يرهبني عنفه، بل لم أكن أخشى حتى أن يعتدي عليّ. كنت أحس إحساساً طاغياً بالقهر، كما لو كنت أخفي جريرة، وها هو ذا يميط اللثام عن سرها. أخفضت عيني خجلاً، ولاحظت أن الكتاب المفتوح فوق الطاولة كان للقديس سان أنطونيو. قرأت هذه الكلمات «Quomodo praeseiantur future»، هل كان هذا محض مصادفة؟ أم أن أحداً ما أراد أن أقرأ هذه الكلمات؟ ومن عساه يكون إن لم يكن هذا العجوز؟ لقد قال إنه له عيوناً كثيرة، كان هذا بالضبط ما عناه، وقد بدا لي كل هذا باعثاً على الكرب، ولا مناص منه، فاعترفت، قلت:

- لقد جئت أبحث عن كزافيير، هذا حقيقي، وأنا أبحث الآن عنه.

نظر إليّ بظفر. الآن، ارتسمت سخرية على وجهه، بل من الجائز شعور بالمقت، تساءل:

- ومن هو كزافيير؟

بدا لي سؤاله هذا نوعاً من الخيانة، ذلك أني شعرت بأنه يكاد يخل باتفاق ضمني، اتفاق يقضي بأنه من المفترض أنه يعرف من هو كزافيير، وأنه لم يكن من الجائز أن يسألني عنه، لذا لم أكن راغباً في أن أبوح له بذلك، قلت كاذباً:

- كزافيير هو أخي.

قهقه بعنف، ثم وجه سبابته نحوي قائلاً:

- إن كزافيير غير موجود، إنه وهم وحسب.

أومأ كمن يحتضن الغرفة، ثم تابع:

- كلنا موتى، ألم تفهم هذا بعد؟ أنا ميت، وهذه المدينة ميتة، المعارك، العرق، الدم، الفخر، سلطتي، كل شيء ميت، لا شيء ينفع في شيء.

قلت:

- كلا، بعض الأشياء تبقى على الدوام.

رد:

- مثل ماذا؟ ذكرياتك! هذه المكتبة!

تقدم خطوة نحوي، فوجدتني أقع في ارتباك كبير، لأني كنت أعلم حق العلم ما الذي كان ينوي أن يفعله. لست أدري كيف؟ لكني كنت أعلم ذلك مسبقاً. دفع بحذاء الفرسان شيئاً ما كان بين قدميه، ولاحظت أنه فأر ميت، سُجِّي الحيوان فوق الأرض، وهمس بتهكم:

- وهذا الفأر أيضاً.

انتابه مزيد من الضحك، وقد جمد ضحكه دمي. صرخ:

- أنا عازف هاميلين.

ثم ما لبث صوته أن غدا ودياً، أخذ يناديني "بروفسوراً"، قائلاً لي:

- اعذرني إن كنت قد أيقظتك.

قال الأب بيمنتل:

- اعذرني إن كنت أيقظتك.

كان رجلاً في العقد الخامس، له هيئة صارمة، وملامح صادقة، مد لي يده، فنهضت مبعثر الذهن وأنا أقول:

- آه، أشكرك، كنت أرى حلماً فظيعاً.

جلس على الأريكة بجانبي، وراح يهدئني بحركة منه، قال:

- لقد تسلمت رسالتك. الأرشيف في خدمتك، تستطيع أن تمكث فيه الوقت الذي تحبه. أظن أنك ستبيت الليلة هنا، وقد أعددت لك غرفة.

دخل تيوتونيو وفي يده صينية شاي، وقطع من الحلوى، خيل إليّ أنها الـ(Pao de lo). قلت:

- أشكرك؛ إن كرم ضيافتك يبعث الراحة في نفسي، لكني في كل الأحوال لن أبقى الليلة هنا. سوف أتجه صوب كالنجوت. لقد استأجرت سيارة، وأريد أن أحصل على بعض المعلومات فيما يتعلق بشخص ما، وسوف أعود بعد أيام.

[9]

قد يصدف لك في حياتك أن تنام في فندق زواري. في اللحظة ذاتها قد تبدو مناسبة غير سعيدة بشكل خاص، ولكن في الذكرى، كما في سائر الذكريات، وقد نقيت من الأحاسيس الفيزيائية المباشرة، من الروائح، من الحرارة، من الرؤية، فإن الظروف تأخذ نوعاً من الغموض الذي يزيد من جمال الصورة. إن الحقيقة الماضية هي دوماً الأقل سوءاً من تلك التي كانت بالفعل. والذاكرة هي مزيف خارق. تجري عمليات إفساد حتى وإن لم يكن ذلك، إرادياً، مرغوباً به. إن فنادق من هذا الطراز مألوفة لتصوراتنا وقد نجد لها نظائر في كتب كونراد أو ماوكهام، في بعض الأفلام الأمريكية المقتبسة عن روايات لكيبلينغ أو برمفيلد، لذا تبدو لنا تقريباً مألوفة.

وصلت فندق زواري آخر المساء، لذا كان الاختيار إجبارياً، كما يحدث دوماً في الهند. فاسكو دي غاما هي مدينة تابعة لمقاطعة جوا، وهي بشعة بشكل استثنائي ومظللة. الأبقار تجوب الشوارع، وأناس فقراء يرتدون ألبسة غريبة موروثة عن العصر البرتغالي. لها -في المحطة النهائية- مظهر بائس، بؤس دون أسرار. يكثر المتسولون، ولكن هنا ليس ثمة معابد أو أماكن مقدسة، وهؤلاء المتسولون لا يستعطفون باسم فيشنو ولا توجد هبات أو أشكال دينية، إنهم صامتون، ذهول، كأنهم ميتون.

في بهو فندق زواري ثمة مصطبة نصف دائرية، جثم خلفها بواب بدين دائم التحدث في الهاتف، يسجل وهو يهتف، يعطيك المفاتيح وهو يهتف، وعند الشفق، عندما تعلن خيوط الضوء الأولى أن بإمكانكم أن تغادروا حجراتكم، تجده ما زال يتحدث في الهاتف، محافظاً دوماً على النبرة الخافتة نفسها، والتي لا يمكن فك طلاسمها، مع من يتحدث بواب فندق زواري؟ أيضاً، ثمة غرفة جلوس واسعة، في الطابق الأول لفندق زواري، تفضي مباشرة إلى حيث توجد لوحة الباب. ولكن هذا المساء كان معتماً جداً، ولم يكن ثمة طاولات. كنت أتعشى في صحن الفندق، إنه صغير، مملوء بأشجار البوكانفيل والورود العطرة. الطاولات منخفضة، وكان ثمة مقاعد خشبية صغيرة، وضوء خافت

جداً. أكلت جمبرياً ضخماً جداً يشبه جراد البحر، وحلويات المانجو، ثم شربت الشاي ونوعاً من النبيذ كنت أعرفه من لونه. كل هذا كلفني حوالي ثلاثة آلاف ليرة إيطالية، وهذا ما بعث الراحة في نفسي. على طول الفناء كانت تنهض الشرفة التي تقابل الغرف. فيها، وبين أحجار الكورتيل كان يركض أرنب أبيض. كان ثمة عائلة هندية تتناول العشاء على طاولة في عمق الكورتيل. بجانب طاولتي كان ثمة سيدة شقراء يصعب تحديد سنها، وقد ذبلت نضارة وجهها. كانت تتناول طعامها بأصابع ثلاثة على الطريقة الهندية، وهي تضع كرات من الأرز تغمسها في المرق. خيل إليّ أنها إنكليزية، وبالفعل كانت كذلك. كانت نظراتها تائهة، مجنونة، ولكن هذا كان يحدث فقط من وقت لآخر، وقد روت لي قصة لا أجد الوقت مناسباً لأرويها. من الجائز أن هذا أيضاً كان حلماً ثقيل الوطأة. على كل فإن فندق زواري لا يأتي بأحلام وردية.

[10]

- كنت ساعي بريد في فيلادلفيا. منذ ثمانية عشر عاماً وأنا أجوب الطرقات حاملاً حقيبة ذات نجاد، دائماً، كل الصباحات، في الصيف عندما الأسفلت يشبه الدبس، وفي الشتاء عندما أسقط فوق الثلج المتجمد، هكذا، لعشر سنوات. أنت لا تدري كم من الرسائل حملت، الآلاف؛ الجميع كانوا سادة، على المغلف، رسائل من سائر أنحاء العالم، من ميامي، باريس، لندن، كاراكاس، صباح الخير يا سيدي، صباح الخير يا سيدي، أنا ساعي البريد.

رفع ذراعه وأشار إلى مجموعة من الصبيان على الشاطئ. كانت الشمس تأفل، والماء يلمع. ثمة صيادون بالقرب منا يجهزون سفينة، كانوا رجالاً أنصاف عراة، وقد عقدوا أرديتهم حول خصورهم، قال:

- كلنا هنا متساوون، لا يوجد سادة.

حدجني بنظرة خبيثة وقال:

- هل أنت سيد؟!

- ما الذي تتوقعه أنت؟

نظر إليّ بارتياب قائلاً:

- سوف أجيبك لاحقاً.

ثم أشار إلى أكواخ صغيرة مصنوعة من سعف النخل، وقد كانت تبرز إلى يسارنا، وتستند إلى كثبان الرمل، قائلاً:

- نحن نعيش هناك، إنها قريتنا، إنها تدعى صن (الشمس).

تناول علبة من الخشب مع بعض الأوراق وبعض التبغ وراح يلف سيجارة قائلاً:

- هل تدخن؟

قلت:

- في العادة لا، ولكن الآن نعم إذا وهبتني واحدة.

لف واحدة أخرى من أجلي وهو يقول:

- هذا التبغ جيد، إنه يجعلك سعيداً، هل أنت سعيد؟

قلت:

- اسمع، تعجبني قصتك، أكمل روايتها لي.

قال:

- هيه، في أحد الأيام كنت أسير في أحد شوارع فيلادلفيا؛ كان البرد قارساً، وأنا أوزع البريد صباحاً. المدينة مملوءة بالثلج، إنها هكذا، بشعة فيلادلفيا. كنت أقطع شوارع هائلة، ثم دلفت إلى زقاق طويل ومعتم، فقط نصلة من الشمس نجحت في أن تثقب الضباب، وأضاءت لي عمق الزقاق. كنت أعرف هذا الزقاق جيداً، أحمل إليه البريد كل يوم، كان شارعاً ينتهي عند السور الخارجي لمكتب بيع السيارات؛ هه، هل تعرف ماذا شاهدت في ذلك اليوم؟ حاول أن تحزر.

قلت:

- ليس عندي أدنى فكرة.

- حاول أن تحزر.

- إني استسلم، إنه صعب جداً.

قال:

- البحر. لقد رأيت البحر. في عمق الزقاق، كان ثمة بحر جميل أزرق ذو أمواج وقد جعدتها الرغوة، وشاطئ من الرمال وأشجار النخيل؛ ما الذي تقوله، هه؟

قلت:

- إن هذا مثير للفضول.

- لقد سبق لي أن رأيت البحر في السينما فقط، أو على البطاقات التي ترد من ميامي أو من هافانا. ذاك كان بحراً حقيقياً، محيطاً، ولكن لم يكن ثمة أحد موجود. كان الشاطئ متصحراً، وقد فكرت هل نقلوا البحر إلى فيلادلفيا؟ ثم فكرت، لعله السراب! كما يقرأ في الكتب، ما الذي كنت ستفكر فيه أنت لو كنت في مكاني؟

قلت:

- الأشياء ذاتها.

- هذا حق، ولكن لا يمكن جر البحر إلى فيلادلفيا، والسراب يحدث في الصحراء عندما تكون الشمس لاذعة وأنت جد ظمآن. كان ذلك اليوم بارداً جداً، كل شيء مملوء بثلج وسخ. وهكذا اقتربت شيئاً فشيئاً من ذلك البحر مأخوذاً به، وبي رغبة عارمة في أن أقفز فيه، حتى ولو كان البرد لاذعاً، لأن تلك الزرقة كانت دعوة. الأمواج تبرق، الشمس تتلألأ.

صمت قليلاً، سحب نفساً من سيجارته، مبتسماً، وقد بدا شارد الذهن، غائباً، وهو يعيش من جديد ذلك اليوم.

- كانت لوحة. لقد رسموا البحر. أولاد الكلب، إنهم يفعلون ذلك مراراً في فيلادلفيا. إنها فكرة المهندسين المعماريين، إنهم يرسمون على الإسمنت قرى، سهولاً، غابات. وهكذا، هكذا يبدو لك أنك لا تعيش في مدينة رديئة كهذه. كنت على بعد شبرين من ذلك، البحر فوق الحائط، وأنا أحمل الحقيبة ذات النجاد. في عمق الزقاق، كانت الريح تزفر. تحت الرمال الذهبية كانت تدور أوراق الشجر، الأوراق اليابسة، كيس من البلاستيك. إنه شاطئ وسخ، في فيلادلفيا، حدقت فيه برهة، ثم فكرت: إذا لم يذهب البحر إلى تومي فإن تومي سيذهب إلى البحر؛ ما الذي تقوله؟

قلت:

- إني أعرف لهذه الجملة وجهاً آخر، ولكن المعنى هو نفسه.

ضحك وقال:

- إن الأمر بالضَبْط كذلك. هل تعرف ما الذي فعلته؟ حاول أن تحزر.

- ليس عندي أدنى فكرة.

- حاول أن تحزر.

قلت:

- إني استسلم، إنه صعب للغاية.

- فتحت حاوية الزبالة، ثم أفرغت فيها حقيبتي. حسناً، لتركنني هنا أيتها الرسائل. ثم هرعت راكضاً إلى المركز الرئيسي، وطلبت مقابلة المدير. إني بحاجة إلى راتب ثلاثة أشهر مقدماً. قلت إن أبي يعاني من مرض خطير وهو راقد في المستشفى. انظر هذه هي

المستندات الطبية. قال، قبل ذلك يجب أن توقع على هذا التصريح. فوضعت التوقيع وأخذت النقود.

- ولكن هل كان أبوك مريضاً حقاً؟

- بالتأكيد إنه لم يكن كذلك. على كل كان سيموت حتى لو بقيت أحمل الرسائل إلى السادة في فيلادلفيا.

قلت:

- هذا منطقي.

قال:

- لقد حملت معي شيئاً واحداً فقط، حاول أن تحزر.

- حقيقي أن هذا صعب للغاية، لا طائل من المحاولة، إني استسلم.

قال وقد امتلأت نفسه بالرضا:

- دليل الهاتف.

- دليل الهاتف!

- فعلاً، دليل هواتف فيلادلفيا. كانت هذه هي كل أمتعتي وما تبقى لي من أمريكا، تساءلت وقد بدا اهتمامي بالأمر يتزايد:

- لأكتب البطاقات، الآن، أنا من يرسل البريد إلى السادة في فيلادلفيا. بطاقات عليها بحر جميل، وشاطئ كالنجوت الصحراوي، وكنت أكتب في الخلف: سلام قلبي من ساعي البريد تومي. لقد وصلت إلى الحرف "C" بالطبع كنت أغفل الأحياء التي لا تهمني، وكنت أكتب دون طوابع. أما الضريبة فسوف يدفعها المرسل إليه.

سألته:

- منذ متى وأنت هنا؟

أجاب:

- منذ أربع سنوات.

- لا بد أن يكون دليل هواتف فيلادلفيا كبيراً!

قال:

- نعم ولكني لست مستعجلاً، عندي الحياة بأكملها.

أوقد الجمع على الشاطئ ناراً هائلة. أحدهم كان يغني. ابتعد أربعة أشخاص عن الجمع ودنوا منا. كانوا يحملون أزهاراً معقودة على شعورهم، ويبتسمون لنا. إحدى الفتيات تحمل بين ذراعيها طفلة تناهز العاشرة من عمرها.

قال تومي:

- سوف يبدأ الاحتفال، سيكون حفلاً كبيراً، إنه الانقلاب الشتوي.

قلت مستغرباً:

- كيف ذلك؟ الانقلاب الشتوي! إنه الثالث والعشرون من أيلول، ونحن في كانون الأول،

أجاب تومي:

- على كل، إنه شيء من هذا القبيل.

تدنو الطفلة منه، تطبع قبلة على جبينه، ثم تنصرف مع الآخرين.

قلت:

- ولكنهم ليسوا يافعين، إنهم يبدون أرباب عائلات.

رد تومي:

- إنهم أولئك الذين يصلون قبلاً، الحجاج.

ثم نظر نحوي وقال:

- ولكن، أنت! كيف أنت؟

أجبت:

- مثلهم.

- أترى.

قال ذلك وهو يحضر سيجارة أخرى، يقسمها إلى قسمين ويعطيني نصفها قائلاً:

- كيف صدف أنك في هذه الأنحاء؟

- إني أبحث عن رجل يدعى كزافيير، من المحتمل أنه سبق له أن مر هنا.

خفض تومي رأسه قائلاً:

- ولكن هل هو سعيد لأنك تبحث عنه؟

- لست أدري.

- إذاً لا تبحث عنه.

حاولت أن أعطيه بعضاً من ملامح كزافيير، قلت مختتماً:

- عندما يبتسم يبدو حزيناً.

تنفصل فتاة عن الجمع، تنادي علينا، ينادي عليها تومي بدوره، ثم تتجه نحونا.

قال تومي موضحاً:

- إنها صديقتي.

كانت شقراء شاحبة، عيناها غائبتان، وقد عقدت فوق شعرها ضفرتين طفوليتين. تمشي مشية مترنحة، وغير ثابتة. سألها تومي إن كانت تعرف شخصاً بهذه المواصفات التي كنت قد بينتها له سابقاً. ابتسمت ابتسامة غامضة ولم تجب، ثم ما لبثت أن مدت يدها بحلاوة وهمست:

- فندق (Mandovi).

قال تومي:

- لقد بدأ الحفل، هل تأتي أنت أيضاً.

كنا نجلس على حافة أحد القوارب، عليه سيماء بدائية، كان صارخاً خشناً كأنه قارب شراعي، قلت:

- قد ألحق بكم في وقت متأخر، سوف أضطجع داخل القارب وأغفو بعض الوقت.

وبينما كانا يبتعدان، رحت أصرخ، ذلك أنه كان قد غفل أن يقول لي إن كنت أنا سيداً أم لا.

توقف تومي، رفع ذراعه ثم هتف:

- حاول أن تحزر.

هتفت:

- إني استسلم، إنه جد صعب.

تناولت دليلي السياحي وأشعلت بعض أعواد الثقاب فعثرت على الفور عليه. كان موصوفاً على أنه يمكن تصنيفه ضمن قائمة الفنادق الشعبية، لكن المطعم محترم. بلدة بانجي في مقاطعة نوفاغوا القديمة. تمددت في مقر القارب، ورحت أرقب السماء أتأملها. إنها ليلة ساحرة. تابعت الأبراج، وفكرت في النجوم، وأنا أعود بذاكرتي إلى تلك الحقبة التي كنا ندرسها فيها، إلى تلك الظهيرات التي كنا نقضيها في القبة الفلكية الاصطناعية. ثم فجأة بدأت أتذكر كل شيء كما سبق لي أن تعلمته. وحسب تصنيف الشدة الضوئية، سيرو، كانوبو، فيجا، كابللا، أرتورو، أوروين، ثم خطرت ببالي النجوم المتغيرة، وفكرت في كتاب شخص عزيز علي وفي النجوم المطفأة، حيث ما زالت أضواؤها تصلنا حتى الآن، وفي النجوم، وفي النيوترون، ثم في الطور الأخير للتطور، وفي الإشعاع المؤثر الذي يرسله. ثم همست بصوت خافت (Pulsar). وكأنما همسي أيقظ شيئاً ما في داخلي، كأنه جهاز تسجيل أديره فيعمل، ومن ثم يتناهى إليّ الصوت المزكوم والهادئ للبروفسور ستيني، الذي كان يقول: "عندما تصل كتلة نجم في الحالة قدرة على مقاومة التمركز، وهذا ما يحدث في اللانهاية، لن تعود وتخرج الإشعاعات أبداً من هذا النجم ومن ثم يتحول إلى ثقب أسود."

[11]

كم من الأشياء تثير السخرية في النفس! لقد سمي فندق «ماندوفي» بهذا الاسم لقيامه على ضفة النهر. نهر ماندوفي، هو نهر واسع لكنه مؤنس. عند مصبه في البحر يبدو موشى بشاطئ يكاد يكون بحرياً. إلى اليسار هناك مرفأ باتاجي، وهو عبارة عن مرسى نهري للقوارب الصغيرة، اصطفت فوقه العوامات التجارية. جسران غير مترابطين، ورصيف صدئ. لما وصلت أخذ القمر بالبزوغ، كأنه كان يخرج من النهر، بل من الرصيف نفسه، تحيط به هالة صفراء اللون. كان بدراً أحمر قانياً. بزغت هذه الفكرة في رأسي كأنها تدور في دائرة ضيقة. تذكرت اسم روكس ثم كلمات كزافيير: "لقد غدوت عصفوراً ليلياً". هكذا بدا لي كل شيء واضحاً، لكنه مثير للسخرية في الوقت نفسه، ثم تساءلت: لم لم أفكر في ذلك قبلاً؟

دخلت الفندق، ألقيت نظرة حولي. يعود تاريخ فندق ماندوفي إلى نهاية الخمسينيات، لكنه يبدو عتيقاً جداً. من المحتمل أنه بني في تلك الحقبة حيث كان البرتغاليون ما زالوا في جوا. خيل إليّ -ولست أدري ما مدعاة ذلك- أني أشاهد آثاراً تدل على الذوق الفاشي الذي كان سائداً في ذلك الوقت. البهو واسع، جائز. كأنه يشبه صالة انتظار في محطات القطارات. من الجائز أيضاً أنه ذلك الأثاث غير محدود الملامح والمثير للاكتئاب، كأنه أثاث مكتب بريد أو وزارة ما. خلف مصطبة خشبية كبيرة، جلس موظفان، أحدهما يرتدي جبة واسعة مخططة، والآخر سترة سوداء عتيقة بعض الشيء، لكنه بدا شخصاً هاماً. توجهت على الفور صوب هذا الأخير، أريته جواز سفري قائلاً:

- أريد غرفة.

راح يراجع سجلاته ويومئ موافقاً.

أوضحت:

- ذات شرفة، مطلة على النهر.

قال الموظف:

- حاضر.

وبينما كان يدون المعلومات في سجلاته، تساءلت:

- هل أنت المدير هنا؟

رد:

- لا يا سيدي، إن المدير غائب، ولكن يمكن اللجوء إليّ فيما يتعلق بأي أمر كان.

قلت:

- إني أبحث عن المستر نايتنغال.

قال بهدوء تام:

- لم يعد المستر نايتنغال يقيم هنا، لقد سافر منذ أمد طويل.

تساءلت وأنا أجاهد كي أحافظ على نبرة هادئة وطبيعية:

- هل تعرف أين عساه يكون؟

رد:

- بالطبع إلى بانكوت، إن المستر نايتنغال كثير السفر، إنه رجل أعمال.

قلت:

- آه. إني أعلم هذا، ولكن من المحتمل أنه عاد.

رفع الموظف عينيه من على السجل، حدجني بنظرة مرتابة، لكنه أجاب بنبرة مؤدبة:

- لا أستطيع أن أقطع لك بشيء يا سيدي.

- كنت أعتقد أن في الفندق ثمة من هو قادر على إعطائي بعض المعلومات الدقيقة. إني أبحث عنه من أجل عمل ضروري، وقد جئت من أوروبا بهذا القصد.

لاحظت أنه كان مرتبكاً، فاقتنصت الفرصة، أخرجت ورقة من فئة العشرين دولاراً، دسستها له تحت جواز السفر، قلت:

- إن الأعمال باهظة الثمن، إنه لأمر كريه أن نقوم برحلة خاوية.

تناول الورقة النقدية، ثم أعاد إليّ جواز السفر قائلاً:

- في كل الأحوال لا يأتي المستر نايتنغال هنا إلا نادراً.

بدا وكأن سمات الشعور بالندم تلوح عليه، أضاف:

- إن فندقنا ذو مستوى جيد، لكنه لا يقارن بالفنادق الفخمة. من الجائز أنه...

وفي هذه اللحظة بالذات، تنبه إلى أنه قد أفرط في الكلام، وإلى أني أثمِّن إفراطه هذا، ثم كانت نظرة، ومرت برهة.

- يجب أن أنهي عملاً هاماً وسريعاً مع المستر نايتنغال.

قلت هذا وأنا أكاد أحس بأن هذا الصنبور قد بدأ يغلق، وبالفعل، قال:

- لم أعد أهتم بأعمال المستر نايتنغال.

كان رده مؤدباً، لكنه صارم، ثم أردف وقد علت نبرته علائم رسمية:

- كم يوماً ترغب في المكوث هنا يا سيدي؟

أجبت:

- ليلة واحدة فقط.

بينما كان يناولني المفاتيح، سألته عن الوقت الذي يغلق المطعم فيه، قال وهو يبدي اهتماماً كبيراً بأنه سوف يغلق في الثامنة والنصف، وأن بإمكاني الاختيار بين العشاء في المطعم حيث لائحة بأصناف الطعام، أو في البوفيه، ثم اختتم موضحاً:

- في البوفيه، نقدم فقط طعاماً هندياً.

تناولت المفاتيح شاكراً إياه، وبينما كنت أقف أمام المصعد، عدت أدراجي، وبادرته بسؤال خالٍ من أي سوء نية:

- يخيل إليّ أن المستر نايتنغال كان يتناول طعامه في المطعم عندما كان يقيم هنا.

نظر إليّ دون أن يفهم الكثير، لكنه أجاب مفاخراً:

- بالطبع، إن في مطعمنا واحداً من أفضل مطاعم البلد.

النبيذ في الهند باهظ الثمن، إنه تقريباً في معظمه مجلوب من أوروبا. أن تشرب النبيذ، حتى ولو كان في مطعم جيد، فهذا يدل على أنك ذو مركز مرموق. حتى دليلي السياحي كان يشير إلى هذا، ذلك أن مجرد طلب النبيذ في المطعم يؤدي إلى تدخل كبير الندل، وكنت أعلق أملاً كبيراً على مسألة النبيذ هذه.

كان كبير الندل بديناً، يحمل نظارتين، وذا شعر مدهون بالصباغ. كانت طريقته في لفظ أنواع النبيذ الفرنسي مروعة، وقد عرض عليّ القائمة كلها موضحاً لي ميزات كل صنف على حدة. خلت أنه كان يتلعثم أحياناً، لكني أعرضت عن هذا. تركته ينتظر قليلاً من الوقت وأنا أتفحص اللائحة وأغلقتها، فتناولها، قلت:

- إنه اختيار صعب، لكن أحضر لي ذلك الصنف الذي كان يتعاطاه المستر نايتنغال.

لم يحاول المناورة، لكنه انصرف بإباء، ثم عاد حاملاً زجاجة من نوع «روز دو بروفنس». فتحها بعناية وصب بضع قطرات لعلي أتذوق طعمه. تذوقته ولم أنبس ببنت شفة. ظل الرجل محتفظاً بهدوئه البارد، لكني قررت أنه حان الوقت لكي ألقي بكل أوراقي. تناولت قليلاً من النبيذ، وقلت:

- كان المستر نايتنغال لا يتعامل إلا مع بضائع من النخب الممتاز حسبما أعلم، هل تعتقد ذلك أنت أيضاً؟

حدق في الزجاجة بنظرة خالية من أي تعبير، ثم أجاب بلهجة لبقة:

- لست أدري يا سيدي، إن هذا يعتمد على تنوع الأذواق.

قلت:

- المسألة هي أنه حتى ذوقي أنا هو جد معقد، فأنا أشتري فقط من النخب الممتاز.

صمت برهة كي أضفي على حديثي طابع الأبهة ولكي يبدو، في الوقت نفسه، حميمياً. كنت أشعر بأني كما لو كنت في حلم، وقد راقني اللعب كثيراً. وكنت أعلم أن الحزن سيأتي بعد قليل. أخيراً قلت وأنا أشدد على الكلمات:

- إنها بضاعة جد حسنة، وكميتها وافرة أيضاً، وليست مجرد قطرات.

حدق في كأسي مجدداً بنظرة خالية من أي تعبير، ثم أردف مواصلاً العراك:

- أخشى أن لا يكون النبيذ هو مما يليق بك يا سيدي!

راحت تؤلمني لعبة الأجر المرتفع هذه. كانت نقودي في سبيلها إلى النفاد، ولكن يجب المضي في اللعبة حتى النهاية، ثم إني كنت متأكداً أن الأب بيمنتال سوف يقرضني بعض المال، فأذعنت للعبة رفع الأجر هذه، قائلاً:

- حسناً أحضر لي اللائحة مرة أخرى، أريد اختيار صنف أكثر جودة.

أفرد اللائحة فوق الطاولة، فدسست فيها ورقة أخرى من فئة العشرين دولاراً ثم أشرت دونما مبالاة أو تحديد إلى واحد من أصناف النبيذ الأخرى. قائلاً:

- أعتقد أن هذا سوف يعجب المستر نايتنغال؟!

رد على عجل:

- لست متأكداً يا سيدي.

قلت:

- سوف أجرؤ على طلب ذلك منك شخصياً، ما الذي تنصحني به؟

رد:

- لو كنت في مكان حضرتك لبحثت عن فندق آخر على الساحل.

قلت:

- على الساحل هناك الكثير من الفنادق، من الصعب جداً العثور على المرغوب فيه.

أجاب:

- الأفضل هما اثنان؛ إن الخطأ غير وارد، الفورت أكوادا ثم الأوبروي. كلا الاثنين لهما أجواء رائعة، يطلان على شاطئ فاتن ويصلان حتى البحر. إني متأكد من أنك سوف تجد ملائمين لذوقك.

نهضت متوجهاً صوب البوفيه. كان ثمة العشرات من السفر فوق آلة التسخين بواسطة الكحول. تناولت صنفاً من الطعام دونما تحديد، وأنا ألتهم لقمة من هنا ولقمة من هناك. كنت أقف بمحاذاة النافذة المفتوحة، حاملاً الصحن في يدي. كان القمر بدراً جميلاً، ينعكس ضوؤه على الماء، الآن تظهر الكآبة كما سبق لي أن توقعت. تنبهت إلى أني لم أكن جائعاً. عبرت الصالة متوجهاً إلى المخرج، وبينما كنت أهم بالخروج، انحنى لي كبير الندل بخفة، قلت:

- أحضر لي النبيذ إلى غرفتي، أفضل تناوله في الشرفة.

[12]

اغفر لي تفاهة سؤالي، ولكن لدي انطباع أنه سبق لنا وتَعارفنا. قلت ذلك وأنا أرفع كأسي وأنقر به كأسها الموضوع فوق المصطبة.

ردت الفتاة ضاحكة:

- لدي الانطباع نفسه، إنك تشبه بشكل غريب ذلك السيد الذي رافقني بتاكسي هذا الصباح من باناجي.

ضحكت أنا أيضاً، ثم قلت:

- حسناً، لا فائدة من محاولة إخفاء الأمر، هذا السيد هو أنا بالضبط.

أضافت وقد طغت على كلامها نبرة عملية:

- هل تعلم، أن تقاسم أجرة التاكسي مع شخص آخر هي فكرة مذهلة. الدليل السياحي يقول إن التاكسي في الهند لا يكلف كثيراً، الأمر على العكس تماماً، إنه يكلفك عيناً من رأسك.

قلت مؤكداً بحزم:

- سوف أنصحك، فيما بعد، بدليل سياحي موثوق به أكثر. على كل، لقد قام التاكسي الذي كنا فيه بدورة كبيرة خارج المدينة، وهذا يضاعف الثمن. كنت قد استأجرت سيارة خاصة من أجل تنقلاتي، ولكني عزفت عن الأمر الآن، ذلك أنها تكلف كثيراً. في كل الأحوال، المكسب الحقيقي الذي جنيته من رحلة كهذه هو هذه الصحبة الحلوة.

ردت:

- ها، لا تحاول استغلال هذه الليلة الاستوائية، وهذا الفندق بين أشجار النخيل، إني مطواعة جداً للمديح، ولا أجد في نفسي القدرة على مقاومة إغراءاته. أكاد أشك في صدق نيتك.

ثم رفعت كأسها مُحيّيةً، وضحكنا سويةً.

كانت الفخامة التي أشار إليها كبير الندل في الماندوفي أقل بكثير من الحقيقة. الأوبروي كان أكثر من مجرد أبهة، كان عبارة عن مبنى أبيض اللون، على شكل هلال، وهو يأخذ في الانحراف والدوران حول الشاطئ الذي كان يطل عليه. هو عبارة عن خليج محمي من نتوء جبلي داخل البحر من جهة الشمال، ومن نتوء صخري في البحر من جهة الجنوب. القاعة الأساسية الكبرى هي مجال مفتوح يستمر حتى الشرفة. ومن هناك، كانت تقسمه مصطبة البار الذي كان من الممكن استخدامه من كلا الطرفين. وعلى الشرفة امتدت طاولات العشاء، مزدانة بأضواء وزهور. وثمة بيانو، مخبأ في مكان ما، مكان معتم، ويدندن بألحان غريبة. ولكي نستوعب الأمر أكثر، كل هذا كان مخصصاً لسياحة جد فخمة وفاخرة، وفي تلك اللحظة لم يكن ليثير هذا أي ضيق في نفسي. الدفعة الأولى من الزبائن كانت قد سبق لها أن اتخذت مكاناً لها على الموائد.

طلبت من النادل أن يحجز لنا مائدة في إحدى الزوايا، مكان منعزل وهادئ، في الظل. ثم طلبت منه إحضار المقبلات.

- بشرط أن لا تكون مدمناً على الخمر.

قالت الفتاة، ثم أضافت بنفس النبرة المازحة:

- يبدو لي أنك تجد مسرعاً في الركض، كيف أتى لك أن تخمّن أني سوف أقبل دعوتك لي إلى العشاء؟

أجبت بصراحة ووضوح:

- في الحقيقة ليست لدي أية رغبة في أن أدعوك للعشاء، لقد قارب زادي المادي على النفاد، لذا سيدفع كل منا حسابه بنفسه. سوف نتناول العشاء هكذا بكل بساطة على الطاولة نفسها. إننا وحيدان، ولا مفر من صحبة ما. يبدو لي الأمر منطقياً جداً.

لم تجب الفتاة، بل استمرت في شرب عصير الفواكه الذي كان قد أحضره إليها النادل. تابعت حديثي:

- ثم من قال إننا لا يعرف أحدنا الآخر، لقد سبق لنا أن تعارفنا هذا الصباح.

قالت معترضة:

- نحن حتى الآن لم يقدّم أحدنا نفسه للآخر.

قلت:

- إنها ثغرة يمكن سدها ببساطة، أنا أدعى روكسي.

- أنا أدعى كريستيان.

قالت الفتاة، ثم أضافت:

- إنه ليس اسماً إيطالياً أليس كذلك!

- وما المشكلة في ذلك؟

- فعلاً، لا توجد أية مشاكل.

- في الحقيقة إن مداعباتك لا تقاوم.

أكدت لها أني لم أنوِ مداعبتها أو مغازلتها، وإنما انطلقت من موضوع يتصل بعشاء ذي روح رياضية، يتم حوار بين زميلين في النهاية. إن الأمر شيء من هذا القبيل.

تطلعت نحوي بنظرة ضارعة، ولم تكن قد فارقتها روح الدعابة، قالت:

- آه، لا. أرجوك غازلني، أرجوك قل لي شيئاً لطيفاً، حدثني عن أشياء حلوة، عندي رغبة رهيبة في ذلك.

سألتها من أين هي قادمة. تطلعت البحر ثم قالت:

- من كالكوتا، لقد قمت بجولة سريعة في بونديشيري حيث أسديت بعض الخدمات إلى بعض مواطنيّ الذين يعيشون هناك، ثم عملت شهراً في كالكوتا.

- وماذا كنت تشتغلين في كالكوتا؟

ردت كريستيان:

- ألتقط صوراً فوتوغرافية، أصور الفظاعة.

- كيف ذلك؟

ردت:

- البؤس، الانحطاط، الفظاعة، سمّها ما شئت.

- ولمَ فعلت ذلك؟

قالت:

- إنها مهنتي، وهم يدفعون لي من أجل ذلك.

ثم قامت بحركة ما وكأنها تدلل بذلك على طبيعة الحرفة التي تمتهنها. ثم سألتني:

- ألم تذهب قط إلى كالكوتا؟

أجبت بالنفي، فقالت:

- لا تذهب أبداً، لا ترتكب أبداً خطأ كهذا.

- كنت أعتقد أن شخصاً مثلك سوف يدعو الآخرين إلى القيام بكل ما يمكن القيام به في هذه الحياة.

- لا.

ردت، ثم أضافت:

- يجب القيام بأقل ما يمكن القيام به.

أشار النادل إلينا يخبرنا أن مائدتنا قد غدت جاهزة، ثم تقدمنا حتى وصلنا الشرفة. كانت طاولة جيدة تماماً كما طلبتها. سألت كريستيان إن كان بإمكاني الجلوس إلى يسارها، هناك جانب الدغلة، هكذا في وضعية تمكنني من رؤية الموائد الأخرى. كان النادل حصيفاً ومجتهداً تماماً مثل كل الندل في الفنادق الكبرى الشبيهة بالأوبروي. ولكن صيادي كالانكوتة كانوا قد أحضروا سلالاً من جراد البحر، كانت جميعها هناك في قعر الشرفة تنتظر الطهي، وحيث كان يمكن مشاهدة الطباخ مرتدياً طاقية بيضاء، متهيئاً وعيناه زائغتان بانتظار من يأمره بالبدء بالطهي. كانت عيناه مشدودتين نحو الشرفة بانتظار الطلبات، كما كان يشاهد مرجل الطهي هناك في الفضاء المفتوح. كان الضوء خافتاً، وعلى كل مائدة وضعت بعض الشموع، ولكن كان يمكن لكل امرئ أن يشاهد الآخر هكذا بكل تركيز.

قالت كريستيان:

- سبق لي أن أنبأتك عن نوع العمل الذي أزاوله، هل تنوي أن تقابلني بالمثل وتعطيني فكرة عن نوع شغلك، إن لم يكن لديك مانع من الإجابة.

- آه، حسناً، لنقل إني في سبيلي إلى تأليف كتاب.

- أي كتاب؟

- كتاب.

سألت كريستيان وهي تنظر نحوي بخبث:

- رواية؟

أجبت:

- شيء من هذا القبيل.

ردت:

- إذاً أنت روائي!

قلت:

- آه، لا. إنها مجرد تجربة، أما مهنتي الأصلية فهي البحث عن فئران ميتة.

- ماذا قلت؟

- كنت أمزح، إني أبحث في أرشيفات قديمة، أبحث عن جداول زمنية قديمة، أشياء عفى عليها الزمن، هذه هي مهنتي وأنا أسميها البحث عن فئران ميتة.

كانت كريستيان تنظر نحوي بنوع من العطف والتسامح، ومن الممكن أن نظراتها كانت واهمة. ثم ما لبث النادل أن يهرع نحونا وهو متحمس جداً، يحمل إلينا بعض أطباق السلطة. سألنا إن كنا نرغب بالنبيذ، فأجبناه بنعم. يصل أخيراً جراد البحر وقد تصاعد البخار منه، محمصاً فقط في منطقة الأفخاذ، أما اللحم فإنه غائص في الزبدة المائعة. السلطة كانت جد حادة، كان يكفي لقمة واحدة منها لكي يلتهب الفم، ولكن النار سرعان ما تخمد، إذ إن الفم سرعان ما يمتلئ بالارومو[6] اللذيذ وغير المألوف. استطعنا أن نتعرف على الجمبري، أما الأشياء الأخرى فقد كانت مجهولة لنا. التهمنا جراد البحر بتلذذ وأناة، ثم رفعنا كؤوسنا. اعترفت لي كريستيان بأنها قد سكرت بعض الشيء. ومن المحتمل أني أنا أيضاً كنت سكران، لكني لم أنتبه لذلك.

قالت:

- احك لي قصة روايتك، هيا، إني بشوق زائد، لا تعذبني.

اعترضت قائلاً:

---

[6] الأورمو: مادة ذات طعم ورائحة لذيذين، وهي من أصل نباتي وتستعمل كمعطر أو مُنَكِّه (المترجم)

- إنها ليست رواية، هي نتف، قليل من هنا وقليل من هناك، لا يوجد في الواقع حتى قصة، إنها أجزاء من قصة، ثم إني لم أكتبها، لقد سبق لي أن قلت لنفترض أني أكتب.

كنا جد جائعين، أفخاذ جراد البحر كانت قد نفدت. خف النادل إلينا مسرعاً، طلبنا أشياء أخرى حسب ذوقه، كنا نوصيه وهو يسجلها.

قالت كريستيان:

- لقد نشرت منذ أعوام ألبوماً للصور، كان عبارة عن شريط فيلم. لقد تم طبعه بعناية فائقة، تماماً كما كنت أرغب، كانت تظهر في الفيلم حتى أطراف شريط الفيلم. لم يكن ثمة تعليقات معه، فقط الصور. كانت تبدأ بحالة أعدها أفضل ما قدمت حتى الآن. سوف أرسل لك نسخة منه إذا أعطيتني عنوانك. كانت الصورة عبارة عن عملية تضخيم، صورة لشاب زنجي، فقط الجزء العلوي من الجسم. كان يرتدي ملاءة كتبت عليها كتابة دعائية. جسم عار، الوجه كان يعبر عن جهد قوي، اليدان مرفوعتان إلى أعلى وكأنهما تشيران إشارة نصر. كان الحجم بالطبع يفوق التصور، تقريباً مئة متر.

كانت كريستيان تنظر إليّ بحذر وهي تنتظر ردة فعلي.

قلت:

- إذاً، أين الغرابة في الأمر؟

ردت:

- الصور الثانية، كانت صورة داخلية. كان ثمة رجل بوليس يرتدي زي المارينز، معتمراً خوذة واقية على وجهه، أحذية فرسان عالية، بندقية في اليد، عينان ضاريتان تحت قناع ضار، كان يصوب رصاصة الزنجي الذي راح يفر وهو يرفع ذراعيه، ولكنه كان قد مات. ثانية واحدة قبل أن أضغط على الكاميرا كان قد مات.

لم تكمل كريستيان الرواية، بل انخرطت بالتهام الطعام.

قلت:

- حسناً أكملي، الآن يجب أن تتمي الرواية.

- كان كتابي يسمى «جنوب أفريقيا»، وكان ثمة تعليق واحد فقط تحت الصورة التي ضخمتها، كان التعليق يقول: «احذروا القطع المختارة».

ندت عنها تكشيرة بسيطة، ثم تابعت:

- بدون أي مقاطع مختارة، احك لي جوهر الكتاب، أريد أن ألم بالموضوع.

حاولت أن أفكر قليلاً، كيف يمكن أن يكون كتابي هذا؟ من الصعب الحديث عن موضوع كتاب. كانت كريستيان تنظر نحوي بتصميم. إنها فتاة عنيدة.

قلت على عجل:

- لنقل مثلاً، أن الكتاب يقول إني قد تهت في الهند، هذا هو الموضوع.

ردت كريستيان:

- آه، لا. لا يكفي هذا، لا تقتطع هذا من الموضوع. لا يمكن أن يكون هذا ببساطة هو موضوع الكتاب.

كررت:

- الموضوع هو إني في هذا الكتاب قد تهت فعلاً في الهند. لنضع هذا السيناريو: ثمة من يبحث عني، لكن أنا، ليس لدي أية رغبة في أن يجدني هذا الشخص؛ لقد رأيته يقترب، تابعته يوماً بيوم، يمكنني القول إني أعرف ما يفضله وما يكرهه، أعرف طرائقه في الهجوم وطرائقه في الدفاع، كرمه، خوفه، إني ممسك به وواضع إياه تحت مراقبتي. إنما هو على العكس من ذلك، لا يعرف مختلفة أو متحفظة، بطاقة لا توحي بشيء، إشارات، نتف يحاول جاهداً أن يلصق أجزاءها ببعض.

سألت كريستيان:

- ولكن من أنت؟ أعني في الكتاب.

أجبت:

- هذا ما لن يقال أبداً في الكتاب، إني شخص لا يريد أن يجده من يبحث عنه، على كل لا يشكل القول من هو جزءاً من اللعبة.

- وهذا الذي يبحث عنك، والذي يبدو أنك تعرفه جيداً، هل يعرفك هو؟

- في يوم من الأيام كان يعرفني، لنفترض أننا كنا يوماً ما صديقين حميمين، ولكن هذا من زمن طويل، وخارج إطار الكتاب.

- إذاً لمَ يبحث عنك بإصرار هكذا؟

- قلت:

- من يدري؟ من الصعب معرفة ذلك، حتى أنا الذي يكتب لا أعرف شيئاً عن هذا. ربما يبحث عن ماضٍ ما، جواب لسؤال ما، أو أنه يريد التحقق من شيء فر منه يوماً ما، إنه بطريقة أو بأخرى يبحث عن نفسه، أريد أن أقول كأنه يبحث عن نفسه وهو يبحث عني، في الكتب ما يحدث في أحيان كثيرة من هذا القبيل، إنه الأدب.

صمت قليلاً، وكأنما تمر الآن لحظة حاسمة، ثم قلت بحميمية:

- هل تعرفين؟ في الحقيقة هناك أيضاً امرأتان.

- آه، أخيراً، الآن يبدو الأمر أكثر أهمية.

تابعت:

- للأسف لا. هذا أيضاً خارج إطار الكتاب، لا تمت إحداهن بصلة إلى القصة.

قالت كريستيان:

- أوف، ولكن في هذا الكتاب كل شيء خارج الإطار، هل يمكن أن تقول لي ماذا يوجد داخل الإطار؟

- هناك أحد يبحث عن الآخر، لقد قلت لك، ثمة من يبحث عني، الكتاب هو بحثه عني.

- حسناً، اروِه لي بشكل أفضل.

قلت:

- اتفقنا. حسناً، الكتاب يبدأ هكذا، يصل إلى بومباي، لديه عنوان لفندق رديء جداً، كنت قد قطنت فيه يوماً ما، ثم يبدأ البحث، إنه يعرف فتاة كانت تعرفني يوماً ما، وهي تعلمه بأني مريض، وإني قد ذهبت إلى المستشفى. ثم إنه كانت لي صلات بأناس من جنوب الهند وهكذا يبدأ هو بحثه عني. في المستشفى أولاً ولكن أمله يخيب، يغادر بومباي، ويبدأ بخوض غمار رحلة، رحلة في البحث عني، هذه هي حجته، لكنه في الحقيقة يرتحل لأعمال خاصة به. الكتاب في الصميم هو هذا، رحلته، يقوم بعدة لقاءات، بالطبع ففي الرحلات يمكن لنا أن نلتقي بأشخاص. يصل إلى مدراس، يهيم في المدينة، في المعابد، هنا

وهناك، ثم في إحدى المؤسسات الدراسية يعثر على جزء ضئيل من أثر، وأخيراً يصل إلى جوا، وهو في كل الأحوال يجب أن يأتي إلى جوا لأعمال خاصة به.

تتابعني كريستيان الآن بمزيد من التركيز والاهتمام، على حين راحت تمص عوداً من النعنع وتحدق فيّ، قلت:

- في جوا، هذا مهم، بالضبط في جوا، ماذا يحدث؟

ثم أردفت:

- ثمة العديد من اللقاءات أيضاً هنا، يهيم بعض الشيء هنا وهناك، ثم في مكان ما، يفهم كل شيء.

- ماذا يفهم؟

- قلت:

- آه، حسناً، لا يستطيع العثور عليّ بشكل سهل وبسيط، ذلك لأني كنت قد غيرت اسمي، واتخذت اسماً آخر لي، لكنه يتوصل أخيراً إلى اكتشاف هذا الاسم. في الحقيقة لم يكن من المستحيل عليه اكتشاف اسمي الجديد، لأن هذا الاسم له علاقة به هو نفسه. فقط في وقت ما، كنت قد حرّفت هذا الاسم وتنكرت به، لا أدري كيف استطاع الوصول إليه، لكنه وصل أخيراً، من الجائز أنها ضربة حظ.

- وما هو هذا الاسم؟

- قلت:

- نايتنغال.

قالت كريستيان:

- اسم جميل، هيا تابع.

- حسناً، بالطبع يستطيع معرفة وجودي؛ يوحي بأن له عملاً مهماً معي، وأحدهم يدله بأني أقيم في فندق فخم على الساحل، مكان بالضبط كهذا.

قالت كريستيان:

- أجل، هيا هيا، تابع، يجب أن تروي لي بشكل حسن، نحن في وسط المشهد.

قلت:

- هذا حق، بالنسبة للمشهد، سوف آخذ بالضبط هذا: لنفترض أنها ليلة كهذه، حارة ومملوءة بالعطر، فندق رفيع المستوى، يطل على البحر، شرفة كبيرة مملوءة بالموائد والشموع، موسيقى، ندل يجوبون المكان وهم متأهبون ومتحفزون للخدمة، طعام ممتاز، بالطبع الطبخ عالمي. أجلس أنا إلى مائدة مع امرأة جميلة، فتاة بالضبط مثلك، لها مظهر الغربية، أجلس أنا وأنت إلى مائدة تقع في الجهة المقابلة للمكان الذي نجلس فيه الآن أنا وأنت، المرأة تحدق في البحر، أنا بالمقابل أحدق في الموائد الأخرى، نتناقش بود، المرأة تضحك من وقت لآخر، يمكن ملاحظة ذلك من خلال حركة كتفيها، تماماً مثلك، وفي لحظة ما...

صمت وحدقت في الشرفة، وأنا أنقل بصري بين الأشخاص الثاوين على المقاعد وهم منخرطون في تناول عشائهم، كريستيان تكسر عود النعنع، وتضعه في فمها كأنه سيجارة، وهي تنتظر بشغف.

قلت:

- ماذا يحدث في هذه اللحظة؟ في تلك اللحظة أراه. إنه يجلس إلى مائدة هناك في العمق، في الطرف الآخر للشرفة، متجهاً اتجاهي نفسه، إننا متقابلان وجهاً لوجه، وهو أيضاً بصحبة امرأة، كنت أرى أكتافها حيث كانت تتجه بظهرها إليّ، لذا لم أتبين من هي بالضبط، ربما أعرفها، بل أعتقد بأني أعرفها، إنها تذكرني بامرأة ما، أو بالأحرى بامرأتين، قد تكون هذه أو تلك، ولكن هكذا، ومن بعيد، وعلى ضوء الشموع من الصعب التأكد من شخصيتها. ثم إن الشرفة جد واسعة، بالضبط كهذه، ويحتمل أنه طلب من المرأة أن لا تلتفت إلى الوراء، إنه يحدق فيّ طويلاً، دون أن يأتي بأية حركة، تبدو عليه علائم الشعور بالرضا، إنه تقريباً مبتسم. من الجائز أنه هو أيضاً يعتقد بأنه يعرف المرأة التي معي، إنها تذكره بامرأة ما، أو بالأحرى بامرأتين، لعلها هذه أو لعلها تلك.

قالت كريستيان:

- ولكن في النهاية، الرجل الذي يبحث عنه، هل وجده أخيراً؟

قلت:

- إن الأمر ليس كذلك بالضبط. لقد بحث طويلاً عني، والآن وقد وجدني، لم تعد لديه أية رغبة في أن يجدني. اعذري لي فظاظتي، ولكن الأمر بالضبط كذلك. الاثنان يفكران بالطريقة نفسها، وبالشيء نفسه، ويظلان هكذا، يحدق الواحد بالآخر.

قالت كريستيان:

- ثم ماذا بعد هذا؟ ماذا يحدث؟

- أحدنا ينتهي من احتساء قهوته، يثني طاولته، يعدل كرافته، لنفرض أنه يحمل الكرافتة، يهمس للنادل، يدفع الحساب، يزحزح بكل أدب واحترام كرسي السيدة التي بصحبته، والتي تنهض معه، ثم يذهب. يكفي، هكذا ينتهي الكتاب.

كريستيان تنظر إليّ بريبة، تبعد كوبها وهي تقول:

- كم هي شاحبة هذه النهاية!

أجبت وأنا أبعد كوبي أنا أيضاً:

- هذا حق، إنها تبدو لي كذلك أيضاً، ولكني لا أجد حلاً آخر.

قالت كريستيان:

- نهاية القصة تتصادف مع نهاية العشاء.

أشعلت سيجارة، وأنا أومئ للنادل قائلاً:

- اسمعي يا كريستيان، يجب أن تعذريني، ولكني غيرت رأيي، سوف أدفع الحساب كله، أعتقد أن معي نقوداً كافية.

اعترضت كريستيان:

- أبداً، الاتفاق كان واضحاً، عشاء أصدقاء، وكل يدفع حسابه بنفسه.

قلت بإصرار:

- أرجوكِ، اعتبري هذا نوعاً من الاعتذار لأني سببت لك مللاً كبيراً.

أصرت كريستيان:

- ولكني استمتعت كثيراً، إني أصر على أن نتقاسم دفع الحساب.

يصل النادل، يقترب مني، يهمس في أذني بضع كلمات، ثم يبتعد بخطوات خافتة، قلت:

- لم يعد ثمة معنى لنقاشنا، العشاء مجاني، لقد دفعه زبون من زبائن المحل وهو يرغب في أن يظل محبوباً.

تطلعت كريستيان نحوي بدهشة قائلة:

- أعتقد أن معجبك هو الذي فعل ذلك.

قلت:

- إنه شخص أكثر ظرفاً مني.

قالت كريستيان وقد بدت عليها إمارات الانزعاج:

- لا تتفوه بحماقات.

قلت:

- هذا ليس حقيقياً، لقد سبق لي أن اتفقت مع النادل على كل هذا. كانت الممرات التي تقود إلى الغرف مسقوفة بخشب لمّاع، أسقف واقية، كأنها تشبه ديراً، على حين أضفت الخضرة الممتدة فوق السقف عليه ذلك المنظر المعتم. لا بد أننا كنا الأوائل الذين انصرفوا، ذلك أن الزبائن كانوا ما يزالون ثاوين في الشرفة يستمعون إلى الموسيقى. كنا نسير جنباً إلى جنب، صامتين، وفي عمق الشرفة رفرفت فراشة ضخمة.

قالت كريستيان:

- ثمة شيء في كتابك، أحس به غريباً، أكاد لا أفهمه، لست أدري بالضبط ما هو، ولكن هذا هو شعوري.

أجبت:

- أنا أيضاً أعتقد الشيء نفسه.

قالت كريستيان:

- اسمع، أنت متفق دائماً مع الانتقادات التي أقوم بها، إن هذا لا يطاق.

قلت مؤكداً:

- ولكني مقتنع بالفعل، هذا حقيقي، إنه شيء يشبه الصورة التي سبق لك أن التقطتها، التضخيم الزائف للموضوع، يجب رؤية الأشياء من بعيد.

«احذروا القطع المختارة».

سألتني:

- كم ستمكث هنا؟

- أسافر غداً.

- هكذا بسرعة؟

- قلت:

- تنتظرني فئراني الميتة.

حاولت أن أقلد طريقة كريستيان في تأكيد أهمية ذلك عندما كانت تتحدث عن شغلها، ثم أضفت:

- إني أتقاضى أنا الآخر أجراً من أجل ذلك.

ابتسمت، ثم أدخلت المفتاح في قفل الباب.

انتهى

فهرست بأسماء الأمكنة الواردة في هذا الكتاب

1. فندق كاجوراهو - شارع سوكلاجي – بدون رقم. بومباي
2. بومباي - Bhulabi Desai Road – Braech candy Hospital
3. تاج محل – أنتر كونيتننتال هوتيل – بوابة الهند – بومباي
4. غرف استراحة الخطوط الحديدية – محطة فكتوريا – الخطوط الحديدة المركزية – بومباي – حجز مسبق لبطاقة قطار صالحا ايضا لـ Indrail pass
5. فندق تاج كوروماندل رقم 5 نونكامباكام. مدارس.
6. الجمعية الثيوصوفية – شارع اديار 12 – اديار – مدارس
7. اوتوستوب – طريق مدارس مانكالور 50 كم بعيدا عن مانكالور – مكان جهول
8. Arcebispado وكوليج سان بوافنتورا – طريق كالانكوت – باناجي – فيلياجوا – جوا
9. فندق زواري سواتانتريا بدون رقم – فاسكودغاما – جوا.
10. شاطئ كالاكنوت . تقريبا 20 كم عن باناجي – جوا.
11. فندق ماندوفي – 28 باندود كار مارج. باناجي – جوا.
12. فندق أوبروي Bogmalo Breaeh. جوا.

أنطونيو تابوكي

Antonio Tabucchi

وُلد عام 1943 في سينا بإيطاليا وتوفي عام 2012 في بيزا. يُعرف تابوكي برواياته وقصصه القصيرة التي تجمع بين الواقعية والخيال، مع توظيفه القوي للذاكرة والحنين والموت والهوية. كتب بالأساس باللغة الإيطالية، واشتهر أيضًا بترجماته لأعمال أدبية من البرتغالية والإسبانية، لا سيما أعمال الكاتب البرتغالي فيرناندو بيسوا، الذي كان له تأثير كبير على فكره وأسلوبه الأدبي.

تميزت أعمال تابوكي بأسلوب سردي يمزج بين السرد التقليدي والتجريب الأدبي، وغالبًا ما تتناول أسئلة الفقد والبحث عن المعنى والاغتراب النفسي، مع لمسات فلسفية دقيقة. من أشهر رواياته: (ليال هندية) و(سينا غير مكتملة)، إضافة إلى مجموعات قصصية قصيرة حققت شهرة واسعة في أوروبا.

معن مصطفى الحسون

مترجم سوري (1961- 2004)

معن مصطفى الحسون وُلد في مدينة الرقة عام 1961 ودرس في مدارسها، ثم تابع دراسته في إيطاليا حيث تخصص في الطب النفسي. حصل أيضًا على إجازة عامة في التاريخ من جامعة دمشق، ما أتاح له الجمع بين المعرفة الأدبية والتاريخية والعلم النفسي، مما انعكس على أعماله الأدبية وترجماته. يعتبر معن واحد من أبرز كتاب القصة القصيرة في الرقة. توفي بحادث سير في عام 2004.

صدرله

قصة قصيرة

الحسون، معن (1999) ألم الشكّ (مجموعة قصصية) (دار الحوار: اللاذقية)

الحسون، معن (2000) عالم غريب (اتحاد الكتاب العرب: دمشق)

ترجمات عن الإيطالية

كالفينو، إيتالو (2003) أسلافنا: البارون المعلق، ترجمة معن الحسون (دار الكلمة: دمشق)

كالفينو، إيتالو (2003) أسلافنا: الفيسكونت المشطور، ترجمة معن الحسون (دار الكلمة: دمشق)

تابوكي، أنطونيو (1998) ليال هندية، ترجمة معن الحسون (دار الكلمة: دمشق)

بوتزاتي، دينو (2009) صحراء التتار، ترجمة معن الحسون (جدار للثقافة والنشر: الإسكندرية)

كالفينو، إيتالو (2004) خوف على الطريق، ترجمة معن الحسون (الناشر: غير محدد)

كالفينو، إيتالو (2004) بلد خائن، ترجمة معن الحسون (الناشر: غير محدد)

كالفينو، إيتالو (2002) الفارس الخفي، ترجمة معن الحسون (دار حوران: دمشق)

كالفينو، إيتالو (2007) الأعمال القصصية الكاملة [أربع مجلدات]: الأغاني الصعبة- الذاكرة الصعبة - الحب الصعب- الحياة الصعبة ترجمة معن الحسون (وزارة الثقافة السورية: دمشق)

NOVEL

تُعَدّ «ليالٍ هندية» لأنطونيو تابوكي واحدة من أبرز الروايات الأوروبية التي التقطت جوهر الرحلة بوصفها بحثًا وجوديًا أكثر من كونها انتقالًا جغرافيًا. منذ صدورها عام 1984، لاقت الرواية احتفاءً نقديًا واسعًا جعلها تُترجم إلى لغات عديدة وتدخل بسرعة في صميم الكلاسيكيات الحديثة.

أشاد النقاد بأسلوب تابوكي الشفيف الذي يمزج بين تيه السفر وغموض الهوية. فالرواية، وإن بدت حكاية عن رجل أوروبي يتنقّل بين المدن الهندية بحثًا عن صديقه المفقود، تتحول تدريجيًا إلى رحلة داخل الذات، حيث تتقاطع الأسئلة عن الزمن، الذاكرة، والمصادفة. هذا التوازن بين الواقعي والمتخيل دفع النقاد إلى تشبيه العمل بـ «متاهة بورخيسية» تسكنها ظلال كافكا ونَفَس الرواية البوليسية، لكن بروح شاعرية آسرة تخص تابوكي وحده.

اعتبرها النقاد «أيقونة صغيرة للرواية الأوروبية المعاصرة»، لأنه يختزل في أقل من مئة صفحة خبرة ثقافية وفلسفية كثيفة. كما رأت جريدة إل كورّييري ديلا سيرا أنّ تابوكي «يُعيد تعريف أدب الرحلة من الداخل، فيحوّله إلى تجربة ميتافيزيقية لا تنسى»، بينما وصفت صحيفة لوموند الترجمة الفرنسية بأنها «بوابة فتحت للأدب الأوروبي على أصوات الهند المضمّخة بالأسطورة والتاريخ».

اليوم، وبعد مرور عقود، ما زالت الرواية تُقرأ بنفس الدهشة الأولى، وتُستعاد كأحد النصوص التي جسّدت معنى السفر بوصفه مرآة للمنفى الإنساني. إنها رواية صغيرة الحجم، لكنها كبيرة الأثر، تأخذ القارئ إلى أماكن بعيدة، ثم تُعيده في النهاية إلى أعماق ذاته.

ANTONIO TABUCCHI

NOTTURNO INDIANO

Translated from Greek by Maan Mustafa Al-Hassoun

9 781326 200305

Jidar
Culture & Publishing